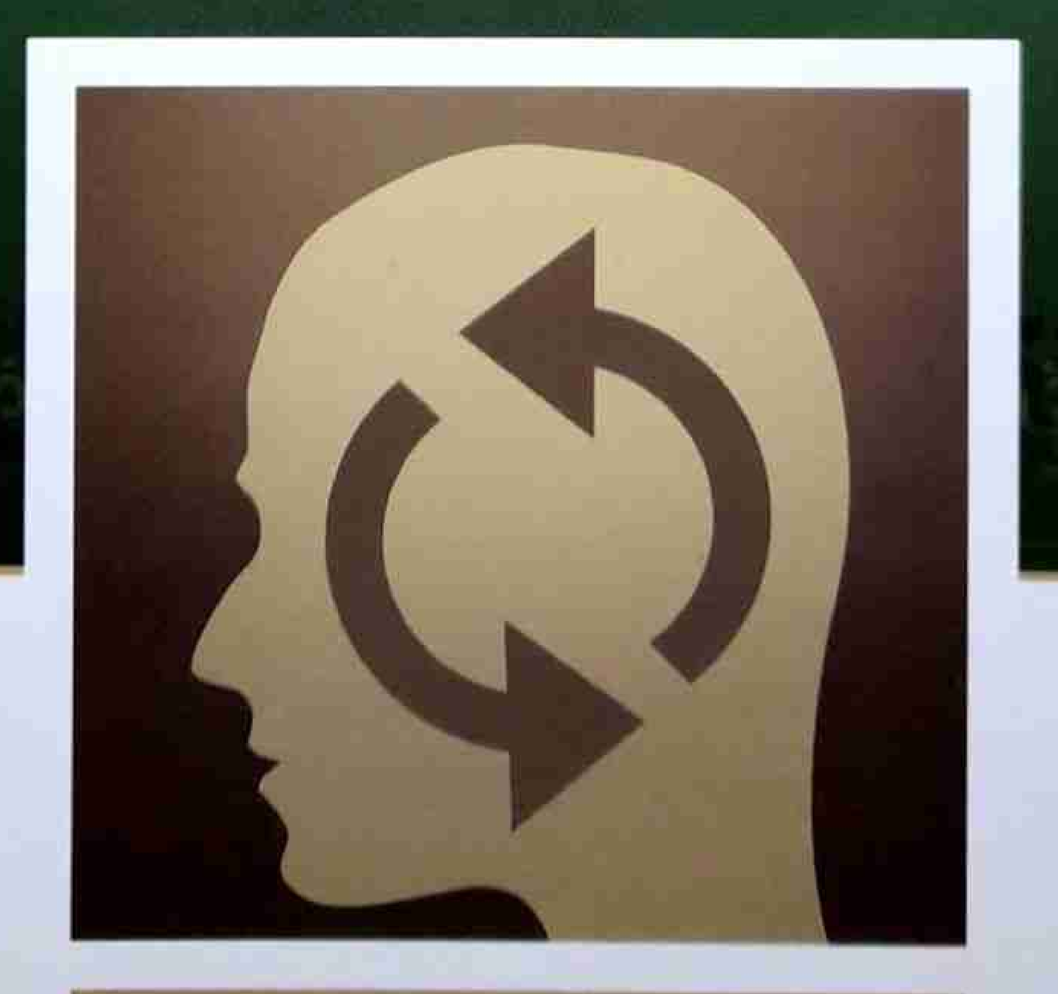
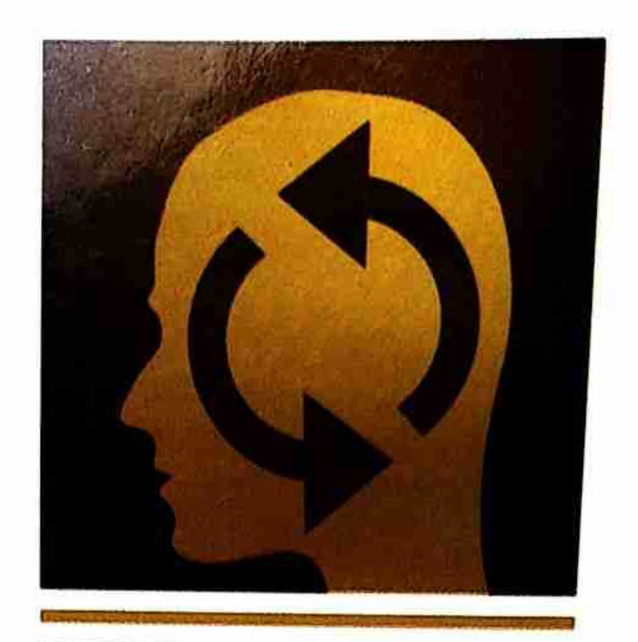


أوراق فكرية (١)

التحولات الفكرية

د . حسن بن محمد الأسمري





التحولات الفكرية

(التحولات الفكرية) واحدة من أهم المظاهر الثقافية التي اتسم بها الواقع الفكري المعاصر، وتأتي هذه الورقة لتجيب عن عدد من الأسئلة المحورية حول هذه القضية، بداية من التأصيل النظري لهذا الموضوع، وتحديد مفهوم التحولات، وهل التحول الفكري ظاهرة طبيعية في الفكر الإنساني؟ ومروراً بالحديث حول أسباب هذه الظاهرة والتي منها التزايد المعرفي المتسارع، وحضور المشاريع الفكرية ذات البعد المنهجي الغربي، وانفتاح وسائل الإعلام، والأحداث السياسية الكبرى، وسوء النشأة المعرفية، وغياب الرموز المؤثرة، وكما تطرق الحديث إلى قراءة نقدية لأهم أنواع هذه التحولات، فثمة تحول من إسلامي إلى إنساني، ومن سنة إلى بدعة، ومن نشاط إلى فتور، وتعبد إلى تخلق. وتنتهي الأوراق إلى الحديث عن آثار هذه الظاهرة وبعض الحلول المقترحة للتعامل معها.



المملكة العربية السعودية - ص.ب ١٨٧١٨ جدة ٢١٤٢٥
هاتف : ٦٢٨٨٦٨٥ ٢ (٩٦٦+) فاكس : ٢٧١٨٢٣٠ ٢ (٩٦٦+)
www.taseel.com- info@taseel.com

التحولات الفكرية

التحولات الفكرية

د. حسن بن محمد الأسمري

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

الطبعة الثانية

١٤٣٦هـ/٢٠١٥م

تصميم الغلاف: مركز التاصيل

الحجم: ١٤×٢١,٥سم

التجليد: غلاف

رقم الإيداع: ١٦٩٠/ ١٤٣١

ردمك: ٩ ـ ٣ ـ ٩٠١٣٨ ـ ٦٠٣ ـ ٩٧٨

مركز التأصيل للدراسات والبحوث

المملكة العربية السعودية، جدة، طريق الحرمين (الخط السريع)، بجوار كوبري التحلية.

هاتف: ٦٢٨٨٦٨٥ ٠١٢ ٩٦٦ +   ناسوخ: ٢٧١٨٢٣٠ ٠١٢ ٩٦٦ +

ص ب: ١٨٧١٨ جدة ٢١٤٢٥ المملكة العربية السعودية

الموقع الإلكتروني: www.taseel.com

بريد إلكتروني: info@taseel.com

رأي المؤلف لا يعبر بالضرورة عن رأي المركز

التحولات الفكرية

د. حسن بن محمد الأسمري

مركز التاصيل للدراسات والبحوث

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين: اللهم إياك نعبد، وإياك نستعين، وعليك نتوكل، وإليك نسعى ونحفد، ونصلي، ونسلم على خاتم أنبيائك ورسلك، أما بعد:

فمن بين الموضوعات المهمة التي كثر الحديث عنها في المجالس، ودارت بها الألسن، وكُتب حولها بصورة مباشرة أو بطريقة غير مباشرة، موضوع «التحولات الفكرية».

ويراد بها في العادة أحداث وقعت في فترة قصيرة من السنوات القليلة الماضية، حيث كان اتجاه أهل العلم والدعوة والفكر متقاربًا ومتآلفًا ومستقرًا على هيئة واحدة وطريقة واحدة، ثم

وقعت هزات عنيفة وصحبها توترات ثقافية ونفسية وسلوكية مزعجة، ولحقها تحولات وتقلبات وتغيرات لافتة.

وقد تختلف وجهات النظر حول قيمة دراستها، بين من يرى أنها غير مستغربة مع بعض الأحداث العنيفة التي لحقت بمنطقتنا في السنوات الأخيرة، ولكنها تهدأ مع الأيام، فتعود الأمور لطبيعتها، ومن يرى أن الأمر أعمق من ذلك، وأن هذه المظاهر المشوشة ما هي إلا تعبير عن بركان خامد لكنه يغلي في الخفاء، وجاء وقت انفجاره، ومن ثمّ تتغير تضاريس كثيرة من حوله، تغيرًا جذريًا يصعب البقاء معه على الحال السابقة.

نعم من ينظر في خط التاريخ بصورة أطول زمنيًا، قد يجد أمثلة من التقلبات والتغيرات والتحولات، ويمكن النظر هنا فقط للقرنين الأخيرين لنعلم حجم التقلبات والتغيرات التي طالت منظومات فكرية وتيارات قوية صلبة، فتحولت من حال إلى حال، أو وقع لها الاختفاء والاندثار، كانت هناك بدايات «لبرالية» وقت الاستعمار، أعقبها تنافس بين «اليسار» و«القومية»، ثم وقع بينهما نوع من التقارب، واختفت مع صعودهما صور الليبرالية الأولى والدعوات الوطنية، ثم وقع للقوميات واليسار ما وقع لما قبلها، فانهارت الأبنية القومية واليسارية، ودخلت مشاريعها السياسية في أزمات عميقة، فتفاجأت المنطقة بظهور تيار فكري يبشر بغد جديد، والتف رموزه آنذاك تحت مسمى «الحداثة»، وبقي فترة من الزمن، ثم وقعت له انتكاسة مدوية.

وفي هذه الأجواء لم تكن «الدعوة الإسلامية» غائبة عن مسار

التاريخ الحديث والمعاصر، فمنذ دعوة الإمام «محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية»، والجهودُ الإسلامية متواصلة، مرة تقترب من منهج أهل السُّنَّة، ومرة تبتعد، وبقي الجهد السلفي سائرًا طوال هذه المرحلة، فقد أعقب الدعوة الإصلاحية أعلام بارزون، مثلت لهم السلفية مرجعية في الاعتقاد والتصور والحركة، ويمكن هنا التمثيل ببعض أفرادها، وترك تياراتها، مثل: «القاسمي» في الشام، و«الألوسي» في العراق، و«محمد رشيد رضا» في مصر، ثم مجموعة تأثرت به ـ وإن خالفته في بعض اجتهاداته ـ مثل: «أحمد شاكر»، و«محمد الفقي» وغيرهما، وليس ببعيد عنهم «الطاهر بن عاشور» في تونس، أو «البشير الإبراهيمي»، و«ابن باديس» في الجزائر، وامتداد لأصول أهل السُّنَّة في المغرب، وهكذا في أماكن كثيرة.

ويصحب هذا التوجه السلفي في الجملة مجموعة كبيرة من علماء الإسلام؛ وبخاصة ممن درسوا في الأزهر ممن كانت لهم نزعة تجديدية، ولا يخفى تأثر طائفة منهم بالروح الجديدة التي بثّتها الدعوة السلفية في العصر الحديث، وبخاصة بعد ظهور الموسوعة العلمية لمدرسة شيخ الإسلام ابن تيمية، فقد كانت هذه الموسوعة مختلفة عن غيرها بقوتها المنهجية، وجرأتها النقدية، وحججها المقنعة، وشمول طرحها الذي غطى أغلب المشكلات المعيقة لنهضة الأمة، فأثرت على من طالعها حتى ولو لم يعترف بذلك.

من هذه الروافد الإسلامية المختلفة انطلق مشروع الدعوة الإسلامية المعاصرة، ممثلًا في علماء ودعاة وجماعات وأحزاب،

نجحوا في وقت قصير - ورغم كثير من الصعوبات - في تحويل كثير من المجتمعات نحو الإسلام بشموليته.

وقد تكونت من خلال هذه المرجعية العريضة مسلّمات في حياة الدعوة الإسلامية، واستقر الأمر على أصول عامة، ولم ينقلب عنها أحد، ولم يخرج عليها معارض، إلا ممن لا يستغرب منهم ذلك، حتى وقعت أحداث عظام، لا يقلل منها إلا جاهل بعصرنا، كما أنها ذات تعقيد يتناسب مع تعقيد عصرنا، مما يجعل من التبسيط المخل اختزالها في أسباب أحادية أو في أفعال معينة.

فهل يمكن وضع ما يحدث من تقلبات في فترة الأحداث الكبرى الحالية ضمن الخط التاريخي الأوسع الذي ألمحنا لبعض عناصره؟ أم أن هذه المرحلة تمثل قطيعة مع ما سبقها من مراحل؟

البعض يضعها ضمن هذا الخط؛ لأن منبع الأفكار ومصدرها عند جميع الأطراف بقي محتفظًا بمكانته، كما أن منهجية كل اتجاه وتيار لم تتغير، وهذا يعني: أن آليات التفكير وإنتاج المعرفة وتقبل الاعتقادات والعمل بمقتضاها - ما زال هو نفسه، وهذا يعني أن تفسير التقلبات يبقى ممكنًا بالأدوات القديمة، وبقياس الحاضر على الغائب، فهنا التاريخ يعيد نفسه.

وقد يخالفهم آخرون فيرون أن هناك أحداث ووقائع أسهمت في تفكيك الآليات القديمة أو الكثير منها، وأوجدت مكانها آليات جديدة، وهذه الآليات هي التي تفعل فعلها في هذه التقلبات والتغيرات وربما التشوش والفوضى. ومن أهم هذه التغيرات

الظاهرية والعميقة: سقوط المعسكر الشرقي، وبروز الرأسمالية، وتحرك مفاهيم ملتبسة من تحتها مثل: الديمقراطية، وحقوق الإنسان، والاكتشافات التقنية المذهلة في عالم الاتصالات، وما تبعها من «البث الفضائي»، و«الإنترنت»، وأثر ذلك في ولادة قوى جديدة، تصنع آليات جديدة، بما فيها آليات فكرية ووجدانية، تحدد الصواب والخطأ، والجمال والقبح، والخير والشر، والحَسَن والسيئ.

وقبل الاستعجال باختيار أحد الطرحين السابقين، أو غيرهما ـ يمكن أن نقوم بتحليل يساعدنا في تحديد الأنسب، ولكن قبل ذلك تذكر بعض الفقرات التي تبين أهمية الموضوع.

أهمية الموضوع

هذه بعض الفقرات التي تبين أهمية الموضوع وثمرة الحديث عنه:

١ ـ كثرة الحديث عن الموضوع بصور مختلفة، مثل الحائر الذي يتساءل عن أحوال شخصيات، أو اتجاهات، فيقول: ماذا حدث لهم، أو لها!! وفي المقابل كثرة الأجوبة **وتعارضها مع بعضها بعضًا**، مما جعل هذه الظاهرة تُطرح طرحًا مشوشًا، وأصبح مفهوم التقلب والتحول يستخدم بطريقة فوضوية، من هنا ظهرت الحاجة للدراسة التحليلية الفاحصة.

٢ ـ حساسية موضوع التقلب أو التحول من الناحية الدينية، فكل مؤمن يتمنى معرفة الحق في الباب، خوفًا على نفسه من أن يقع في محذور، أو خوفًا من التسرع في الحكم على المواقف

والناس دون علم وبصيرة، وهنا تظهر أهمية تبصير الذات بحقيقة الظاهرة.

حدود الورقة

لهذه الورقة حدود هي الحدود المتعارف عليها في أوراق النقاش، فقد ركزت على طرح وجهة نظر في الموضوع، وقد أخذ التفكير فيها وإعدادها عدّة أشهر، وهذه الورقة إنما هي ملخص لذاك الجهد، فأسأل الله أن ينفعني بها وعموم المطّلعين عليها، وهدفها هو الوعي بالإشكالية وفق التصور الإسلامي، فهي دراسة فكرية نقدية لهذه الظاهرة لتحقيق مساحة وعي أعمق.

وحتى تكون مباشرة وسهلة فقد جردتها من الهوامش، وحاولت صياغتها صياغة تناسب الإلقاء بعيدًا عن التكلف ولا يعني هذا إهمال العمق.

وفي الورقة فراغات لا أجهلها، ولكن بعضها متعمدًا حتى لا أطيل.

التمهيد

تأصيل نظري

يبحث التمهيد عناصر مهمة قبل الدخول في الموضوع، وبدراسة هذه العناصر المقترحة يمكن السير في جنبات الموضوع بصورة أيسر، وأهم هذه العناصر أربعة، وهي:

١ ـ تحديد المفهوم.

٢ ـ المتفق والمختلف ـ مفاهيم مزاحمة.

٣ ـ الفرق بين بيئتين.

٤ ـ تطور أم تقلب.

١ تحديد المفهوم

ماذا نقصد بالتقلبات؟

من أول العناصر أهمية، تحديد معنى التحولات أو التقلبات، وفق طرح موضوعي علمي ـ قدر المستطاع ـ، والطرح العلمي الموضوعي هو ما كان مبنيًا على دليل أو منهج متماسك، حتى نُخرِج منه الجوانب الذاتية والإجابات الفردية وردود الأفعال.

التقلبات أو التحولات وصف يراد منه الانتقال من حال حسنة إلى حال غير حسنة، وهذا الأمر معروف من حال البشر، فكم من الناس ينقلب من الخير إلى الشر، ومن الاستقامة إلى الضلالة، ومن القوة إلى الضعف، ومن الحسن إلى السوء، وبما أنه معروف فلماذا نخصص بحثًا عنه؟

تكون أهمية الدراسة عندما تكون الأمة ـ أو جماعة عريضة منها ـ متوجهة للخير، وفيها نمو مطّرد، ثم يقع توقف، أو انكسارات، أو تقلبات، بحيث لا تكون شأنًا فرديًا، ويكون الأمر أكثر أهمية عندما يقع من أناس يُحسن الظن بهم.

ولهذا التقلب أو التحول بعض الخصائص الأولية:

أ ـ أنه تقلب أو وليس تذبذبًا، ويقصد بذلك أن صاحبه يكون على قناعة بأمر ثم تتغير قناعاته، فينتقل لمنهجية أخرى ويسلك طريقًا أخرى، أما التذبذب فهو لم يتعمق في الحال الأولى، ولم يستقرّ على حال جديدة، فهو قريب من صاحب الاضطراب النفسي.

ب ـ أنه انتقال من حال حسنة إلى أخرى سيئة، فمن كان انتقاله من سيئة لحسنة فيمكن أن نسميه تغيرًا، أو تحولًا، أو استقامة وهداية.

ت ـ أنه طويل نسبيًا، فصاحبه قد كان على حال ـ ولفترة طويلة نسبيًا، وليس كمن حسنت حاله لأيام ثم انقلب عنها، وكذا إصراره على باطله بعد انقلابه يأخذ فترة طويلة نسبيًا.

ج ـ أنه مجاهر بحاله مفتخر بها مدافع عنها وداعية لباطله، بخلاف من انقلب ولم يجاهر، فهو ـ وإن انقلبت حاله، إلا أنه ـ ما زال في حال الستر، وكل الأمة معافاة إلا المجاهرين. ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: **«كل أمتي معافى إلا المجاهرين، وإن من المجاهرة أن يعمل الرجل بالليل عملًا، ثم يصبح وقد ستره الله عليه، فيقول: يا فلان، عملت البارحة كذا وكذا، وقد بات يستره ربه، ويصبح يكشف ستر الله عنه»**، ومما نجده في الفتح حول الحديث: **«كل أمتي معافى»** بفتح الفاء مقصور اسم مفعول من العافية، وهو إما بمعنى: عفا الله عنه، وإما سلّمه الله وسلّم منه، (ومحصل الكلام كل واحد من الأمة يعفى عن ذنبه، ولا يؤاخذ به إلا الفاسق المعلن)، (وقد ذكر النووي: أن من جاهر بفسقه، أو بدعته جاز ذكره بما جاهر به دون ما لم يجاهر به) [فتح الباري، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه ١٠/ ٤٨٨].

د ـ أصل الانقلاب راجع إلى تأثر في المنطلقات الفكرية.

٢ المتفق والمختلف ـ مفاهيم مزاحمة

من يدخل النقاش الدائر حول هذا الموضوع يجد خلطًا يؤثر على التصور الصحيح والفهم الممكن لهذه الظاهرة، ومن ذلك إيراد صفات لأفراد لا علاقة لها بالثبات على الحق، أو التقلب في الباطل، وإنما هي صفات فردية قد يمدحها المتعجل في النظر وليست كذلك بإطلاق، أو يذمها وليست صفة ذم.

وهنا نذكر أمثلة تعبر عن المعنى وتوضح مشكلة الخلط، ومن ذلك:

الجمود والتصلب وحب السلامة أو البرود وما في بابها، فقد يثبت فرد على طريقة، أو أمر بسبب نفسي، أو عقلي يعود على جمود تفكيره، أو تصلبه، أو برودته، فمثل هذا إن كان حاله على خير فهو على خير، ولكن قد يكون أحسن منه مَن كان ثباته على الحق ليس لأن الحق وافق ميوله ونفسيته وشخصيته، وإنما ثبت بسبب قناعته بأنه هو الحق، حتى وإن خالف ميوله أو طبعه.

وهؤلاء الأفراد يقع معهم الإشكال في الأمور التي ينبغي أن تتغير وتتطور بسبب تغير ظروفها وواقعها، ثم تجده يرفض هذا التطوير ويذم من يسلكونه، وقد يصفهم بالتقلب، وتمييع القضايا، والانجراف مع المتغيرات وضغوط العصر.

وهناك عدد من المفردات التي تحركت في ضوء هذه الإشكالية مما يعني أننا في حاجة لتحليل هذه المفردات وتبيين الفروق بينها حتى لا تؤثر على التصور الصحيح.

٣ الفرق بين بيئتين ـ التحليل الخماسي

يمكن أن نضع المكتشفات التقنية التي مهدت للثورة الاتصالية والإعلامية نقطة فاصلة بين مرحلتين، وبخاصة بعد ظهور البث الفضائي ثم الشبكة المعلوماتية، والمسألة ليست بهذه الحَدية، فهناك مساحة حركة قليلة للخلف والأمام، ويمكن أن نذهب للخلف لفترة تتضح فيها البيئة القديمة تمام الوضوح، وفي المقابل نتوجه لأقصى الأمام بحيث تتضح لنا البيئة الجديدة أتم وضوح، ومن هاتين النقطتين المتباعدتين يمكن الخروج بهذا التحليل الخماسي:

الموضوع	البيئة القديمة	البيئة الجديدة
طبيعة الواقع	بسيط	معقد
أسباب الظواهر	أحادية	علائقية
طبيعة الظواهر	مشكلة	إشكالية
فهمها	سهل	صعب
الحل	بسيط	مركب

بعد هذا التحليل يأتي سؤال: أين برزت ظاهرة التقلب والتحول؟ والجواب: أن ذلك في البيئة الجديدة، وهذا يعني أهمية تحليله وفق المعطيات الجديدة.

٤ تقلب أو تطور

تقف الورقة هنا مع ثلاث قضايا، ذات علاقة مهمة بموضوع التحولات والتقلبات، يقع فيها الخلط بين ما هو تقلب وبين ما هو ليس بتقلب، وهي:

أولًا: تغير الفتوى:

فمن المعلوم أن الأحكام الشرعية ثابتة إلى قيام الساعة[١]، ولكن هناك أمور تكون الأحكام فيها مرتبطة بواقع خارجي متغير، مثل: الأحكام المرتبطة بالأعراف أو بأسباب، فمتى وجد السبب وجد الحكم، فهذا النوع يتغير بتغير الزمان والمكان والأشخاص والأحوال، وبعبارة أيسر يمكن أن نقول إن هناك أكثر من حكم، كل واحد يناسب واقعه، وذلك في الموضوع المرتبط بأسباب متغيرة، فكلما ظهر واقع جديد فهو في حاجة لفتوى جديدة، أو قُل: أخرى تبين الحكم فيه.

ومن هنا فقد يفتي عالم من العلماء، أو تظهر فتوى من جهة دعوية، في زمن ما، أو في واقعة معينة، وتبقى فترة من الزمن لبقاء الأسباب، ولكن قد يقع تحول يؤثر على الأسباب التي تتغير وتتغير معها الفتوى[٢].

ثانيًا: تغير الاستراتيجيات:

ترتبط الاستراتيجيات بالوسائل والأساليب، وغالبًا ما تكون مرتبطة بعصرها، فإذا وقع تغير في العصر؛ كأن تظهر مكتشفات

(١) هناك ضمن «مجلة الأحكام العدلية» قاعدة تقول (المادة ٣٩): «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان»، وهذه لم تكن معروفة في التراث الإسلامي، ومن هنا انتقدها مجموعة من العلماء المعاصرين، وذلك أن المعروف هو القول بتغير الفتوى كما في النص المشهور عن ابن القيم. وقد بحثت هذه المسألة في موضع آخر ببحث عنوانه: أثر عاملي الزمان والمكان في قوة الخلاف.

(٢) انظر إعلام الموقعين، ٣/٣.

جديدة تؤثر على مجمل الوسائل ومن ثم الأساليب المرتبطة بها، هنا يكون من الحكمة ومن سلامة الحركة أن نغير في الوسائل والأساليب بما يتناسب مع روح العصر الجديدة.

وهنا يختلط الأمر على البعض، فيتهم هذا الداعية أو تلك الدعوة بأنهم متقلبون، مضيعون، مميعون، مستسلمون لضغوط الواقع، والأمر ليس كذلك، بل هم في الطريق الصحيح، وهذا هو حال الأنبياء عليهم السلام في دعوتهم لقومهم، ونجد ذلك في سيرة الرسول ﷺ، فطريقته في مكة تختلف من فترة لأخرى، وتختلف عنها طريقته في المدينة.

ثالثًا: تغير الاجتهاد:

من المسلّم به في المنهج الإسلامي أن العالم المسلم بشر، وهو وإن وفق في جهده العلمي إلا أنه غير مبرأ من الخطأ، ومن ذلك أنه قد يجتهد ويخطئ، فهنا له أجر على اجتهاده، فهو قد بذل وسعه مع امتلاكه العلم وامتلائه من القيم ما يجعله أهلًا للاجتهاد وموطن إكرام من رب العالمين، فيعطيه الأجر - حتى وإن أخطأ، فإن رأى الحق في غير ما اجتهد، تجده وبدون حرج يغير اجتهاده، فالحق هو قائده مهما كانت العواقب، وبخاصة وهو يعلم أن الأجر ينتظره، ولكن قد نجد ممن قلّ نصيبه من العلم، أو ممن في نفسه هوى، من يقول مالِ هذا العالم يتقلب في علمه واجتهاده وفتواه، فقد أفتى قبل خمس سنوات بكذا واليوم يفتي بخلاف ذلك، فنقول: إن هذا ليس من التقلب، بل

هو من العلم الذي يؤجر عليه صاحبه، فقد يكون اجتهاده الأول خطأ، أو يكون هناك أمر ترجح له حتى ولو لم يجزم بخطأ الفتوى القديمة[١].

(١) انظر مثلاً فتاوى ابن تيمية، ١٢/ ٤٩٠ ـ ٤٩٧.

القسم الأول

الأسباب

تقدم في التمهيد الحديث عن الواقع البسيط والواقع المعقد، وأن أسباب الظاهرة في الواقع البسيط أحادية في الغالب، ومن ثمّ يسهل معرفتها وتوقع العلاج المناسب لها، أو طريقة التفاعل، أو التعامل معها، بخلاف الواقع المعقد فأسبابه علائقية متشابكة، ومن ثمّ يصعب الإمساك بها ويعسر على النظرة الأولى معرفتها، ومن هنا يقع الاضطراب في المقترحات المطروحة للتعامل معها.

وتحديد الأسباب في الأصل مسألة صعبة، والطرق المشهورة لاكتشافها، إما الرجوع لمناهج علمية مقترحة ويصعب تطبيقها في مثل هذه الموضوعات، أو جهد الباحث من خلال ما تكوّن عنده من رصيد منهجي في تحليل الظواهر، وهو الأقرب هنا، ولا يمنع

ذلك من الاستفادة من دراسات موجودة في الساحة طبقت الطريقة الأولى.

فلنذكّر بالإشكالية: (حقيقة التقلب الفكري هو التحول من حال حسنة لأخرى سيئة بأسباب متحركة في البيئة الجديدة أو هي موجودة من زمن البيئة القديمة).

والأسباب لهذه الظاهرة تتسم بخصائص، أهمها أنها ذات بعد فكري، وأنها مرتبطة بمنتج وجداني طاغٍ من الفنون والآداب، وأنها تستثمِر بقوة وسائل التقنية الجديدة التي تلعب دورًا مهمًّا في التقلبات وذلك بعد امتلائها بالمواد الفكرية المباشرة، أو غير المباشرة، مع جانب تفاعليتها وإدماجها المتلقي في عملية استقلاب خطيرة، وكثرة المادة الفكرية التي تربك المحتك بها، وتعدد المصادر، ومشاركة المتقلب في العملية الفكرية، وشعوره الوهمي بدور حيوي له.

وهنا ملحوظات مهمة حول الأسباب، وهي:

١ - بعض هذه الأسباب موجود من زمن، فلماذا ظهرت آثارها الآن ولم تظهر من قبل؟

فيكون أحد الأسئلة المهمة هنا: إن بعض الأسباب معروفة، وهي موجودة قبل حدوث هذه الظاهرة، فلماذا وقعت هذه الظاهرة الآن وليس قبل الآن؟ بداية يمكن تشبيه بعض الأسباب بالبركان الخامد الذي ينتظر فرصة للتنفس والانفجار...

وهنا تظهر أهمية معرفة كينونة الأسباب وطريقة عيشها وحياتها، فقد تكون كامنة في الجسم أو المجتمع، وتعمل في

الخفاء، ثم تأتي فرصة سانحة، فتخرج، وعندها يكون الأمر صعبًا، وكم من مرض عضوي يبقى في الخفاء حتى يصرع صاحبه، فيقول الطبيب: إن أسباب هذا المرض موجودة من زمن، والمرض موجود معه من أشهر أو سنوات ولم ينتبه له، والآن حالته صعبة، وقد ينفع معه العلاج وقد لا ينفع.

٢ ـ دور الأسباب في البيئة المعقدة معقد، ولكن قد تكون هناك خطوط عامة تقف خلف ظاهرة التقلب بعمومه، بحيث تكون طبيعة المرحلة أنها متقلبة، وذلك بعيدًا عن تحديد اتجاه هذا التقلب، فإذا انتقلنا لنوعية التقلبات نجد بعض الأسباب تظهر في صورة من صور التقلب بينما تضعف هذه الأسباب في صورة أخرى.

٣ ـ لا شك أن هناك تغيرات واضحة، بعضها إيجابي وبعضها سلبي، والورقة تركز على السلبي منها، وتبحث عن أسبابه، ولا يعني ذلك أنها أهم من التركيز على الإيجابي، بل دراسة الإيجابي مهم أيضًا، فإن معرفة أسبابه لدعمه لا تقل أهمية عن دراسة الجانب السلبي.

لو رجعنا للكتابات التي تحدثت عن أسباب التقلب السلبي من القرن الثالث وحتى اليوم سنجد تشابهًا كبيرًا في بعض الأسباب، خذ مثلًا: مجالسة المنحرفين والضالين وأثرها، لا تفتح كتابًا عن أسباب الابتداع والافتراق والتحول من الحق للباطل إلا تحدثت عن هذا السبب، فهل نستعيد تلك الأسباب أم نبحث عن غيرها؛ أي، ما ميزان اختيار الأسباب؟

ربما كان من المهم التوقف مع ما كتبه علماء الإسلام في قرون متأخرة مثل ما نجده عند علماء القرنين: الثامن والتاسع؛ لما فيها من تحقيق يفيدنا كثيرًا، مثل: ما كتبه النووي، أو ابن تيمية، أو ابن القيم أو ابن كثير، أو الشاطبي، أو ابن حجر وغيرهم ـ رحمهم الله جميعًا ـ من علماء تلك المرحلة، الذين دققوا النظر في نصوص الوحي واستنبطوا منها أسباب الانحرافات، ومما نجده في كتبهم: **تركيزهم على مشكلة الجهل ومشكلة الهوى ومشكلة التقليد**، وتحليلهم العميق لها بما يكشف أن هذه المشكلات يمكن أن تتكرر في كثير من العصور، وتتشكل في كل زمن بأشكال مختلفة، فهذه الأمراض لها حياتها الخاصة، موجودة بصورة أو أخرى من حولنا، وما إن تجد الشخص المناسب لها حتى تتلبس به فتورده المهالك.

ومع ذلك فهذه المشكلات الثلاث ليست من السذاجة حتى تظهر بشكل واحد، بل هي تتشكل بأشكال مختلفة؛ كحال الفيروس الضار، الذي يتطور ويتغير، مما يجعل العلاج القديم غير نافع معه، ومع أن الاسم ما زال موجودًا إلا أن العلاج لم يعد ينفع معه، وقل مثل ذلك في المفاهيم الخطيرة، فهي ذات مستويات مختلفة وتظهر في كل مرحلة بمستوى معين، فيناسبها من العلاج في هذا المستوى ما لا يناسب في ذلك المستوى.

يمكن القول إذًا أن المرض يرجع لهذه الأسباب الثلاثة التي دلت عليها نصوص الكتاب والسُّنَّة، ولكن هذه الأسباب تظهر في كل مرحلة بطريقة، وقد نعرض أسبابًا بأسماء أخرى، ولكنها في حقيقتها ترجع لهذه الثلاثة:

أولًا: ثنائية الجهل والعلم

لا شك أن الجهل سبب كبير، سواء كان المقصود به الجهل بالعلم أو الجهل بجهله العلم النافع مع ادعائه العلم، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في «بدائع الفوائد»: «الجهل قسمان: بسيط وهو عبارة عن عدم المعرفة مع عدم تلبس بضد، ومركب وهو جهل أرباب الاعتقادات الباطلة، والقسم الأول هو الذي يطلب صاحبه العلم، أما صاحب الجهل المركب فلا يطلبه»، فصاحب الجهل المركب يدرك الأمر على خلاف ما هو عليه، ولكن قد يكون السبب في المشكلة هو العلم بمفهومه النظري؛ لأن للعلم مستويات، ومنها العلم الوارد في نصوص الوحي، وهذا النوع هو الذي يعصم صاحبه - بإذن الله -، أما مجرد العلم فقد يسبب مشكلات كما أن له فوائد، وهو واضح في علوم الدنيا، فبعض الاكتشافات العلمية سببت الخراب والدمار وزيادة مأساة الإنسان في الدنيا، ومثله ما يقع للفرد، فليس كل علم يرفعه أو ينفعه، بل قد يضره، ومن هنا جاءت ثنائية الجهل والعلم.

وصاحب هذه الورقة يتجه إلى أن مشكلة التقلب جاءت من العلم ولم تأتِ من الجهل، فربما يكون الجاهل في أموره أكثر ثباتًا وأقوى من المتعلم؛ وذلك أن الجاهل خياراته محدودة، ويغلب عليه تقليد من اقتنع به، فتجده ثابتًا على أمر واحد، حتى ولو كان خطأً.

فكيف يمكن أن يكون الأمر من العلم؟

هنا نرجع لاختلاف البيئات، ففي وقت كان التعليم محدودًا، والأمية منتشرة، وكان أهل القرى يتعبون حتى يجدوا من يقرأ لهم رسالة أو من يكتبها، ثم تطور الأمر، وأصبح المتخرجون من الجامعات فقط عشرات الآلاف، وذلك في فترة قصيرة، وهذا الاختلاف وقعت معه تغيرات، ومن أهمها أنه كما وجدت منه إيجابيات فقد ظهر من ذلك سلبيات، منها التقلب، عجبًا!!

مفتاح هذه الظاهرة يبتدئ بتأمل هذه الآيات الكريمات التي نقسمها لقسمين:

القسم الأول من الآيات:

قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾﴾ [آل عمران: ١٩].

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴿٥﴾﴾ [البينة: ٤، ٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦﴾ وَءَاتَيْنَٰهُم بَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ ۖ فَمَا ٱخْتَلَفُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾﴾ [الجاثية: ١٦، ١٧].

وقال تعالى: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا

ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢١٣﴾﴾ [البقرة: ٢١٣].

وقال تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الشورى: ١٣ ـ ١٥].

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١٠٧﴾ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَا ٱللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٨﴾﴾ [آل عمران: ١٠٥ ـ ١٠٨].

مما يفهم من هذا السياق القرآني أنهم كانوا على الحق، ثم وقع الاختلاف والافتراق، وهو انقلاب عن الحق إلى الباطل، ولكن من العجب أن الانقلاب وقع بعد مجيء العلم والبينات

والهدى؛ أي: بعد معرفة الطريق، وهذا يعني: أن العلم قد يكون لطائفة من المتعلمين فتنة، فالجهل قد ارتفع عند هؤلاء ولكن حلّ مكانه البغي، أو حتى بدونه.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الباب: «فأخبر سبحانه أن المختلفين بالتأويل لم يختلفوا لخفاء العلم الذي جاءت به الرسل عليهم، وإنما اختلفوا بعد مجيء العلم، وهذا كثير في القرآن؛ كقوله: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ فَمَا ٱخْتَلَفُوا۟ حَتَّىٰ جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٩٣﴾﴾ [يونس: ٩٣]» [الصواعق المرسلة ٢/ ٥١٣].

القسم الثاني من الآيات:

قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾ [محمد: ٢٤، ٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ [النساء: ١١٥].

وهنا تحذير من الارتداد على الأدبار والسير في سبيل غير المؤمنين، ومن المعاني المهمة في هذه الآيات أن العلم كل العلم هو في كتاب الله ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾، وفي سُنَّة رسول الله ﷺ: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ﴾، وأن الانقلاب يكون من إملاء الشيطان ومن سبيل غير المؤمنين، والثبات يكون بتدبر القرآن وعدم مخالفة السُّنَّة، ومن لم يفعل ذلك وقع له الانقلاب بحسب حاله، نسأل الله الثبات على الحق والسلامة من سبل أهل الضلال.

معالم مهمة حول ثنائية الجهل/ العلم

- هل المعرفة ترتبط بطلب الحق؟ التعارض بين المصلحة والمعرفة في الدراسات الحديثة، وتأكيدها أن المعرفة غير قادرة على تثبيت صاحبها، بل قد تهتز مع أقرب مصلحة.

- دور الجامعات في تربية العقل على النظر، والتحليل، والتفكير، والفهم، ومن ثمّ توقع الاعتداد بالعقل والثقة المفرطة فيه، وأثرها في التحول.

- الجامعات وصناعة جوعى المعرفة... واستهلاكهم لها عبر أية وسيلة، ودور بعض هذه المعارف في التحولات.

- سوق ثقافية كبيرة انفتحت في السنوات القليلة: كتب، مجلات، معارض، مكتبات خاصة، قنوات فضائية ثقافية، أو برامج ثقافية فضائية، المواقع الحاسوبية.... طفرة، ولا بد من أثر.

- من خصائص المستهلك الأساسية أنه متقلب، وهي في حاجة لمزيد من التأمل.

- مقارنة بين الاستهلاك المادي والاستهلاك الثقافي؛ الأشياء والأفكار.

خلاصة: ازدياد المعرفة البشرية لا يعني انفكاك العقل من اللاعقل، ولا يعني انفكاك الذات من الالتواءات والتقلبات.

وأحد الحلول المهمة هنا هو إغاثة التعليم العالي من قبل المفكرين المسلمين بمنهجيات يتعلمها المتعلم، تعينه في إدارة

عقله، وهذا يشبه ما قام به علماء الإسلام من إبداع (مصطلح الحديث)، وإبداع (أصول الفقه)، فكان لهما دور كبير في إدارة العقل المسلم، وحمايته من الغلط غير المتعمد.

ويضاف لذلك تعزيز حركة الفكر الإسلامي ودعمها حتى تنزل بضاعتها إلى سوق الأفكار، فبضاعتهم هي البضاعة الأصلية، التي ينتفع الناس بأخذها، ولكن البارز هو غلبة هموم أخرى على التأصيل العلمي والفكري، وقد يُعذر أصحاب الهمّ الإسلامي في وقت ما، ولكن لا يصح استمرار هذا النقص. وهى مسألة لا تحل بالأماني، ولا تحل بسرعة، ولكن من المهم الابتداء في ذلك ولو استغرقنا زمنًا طويلًا...

ثانيًا: المشروعات الفكرية

يمكن القول إنه بعد ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م تقريبًا توفرت مادة فكرية كبيرة لمجموعة من كبار المفكرين العرب، والمتأثرين بالثقافة الغربية العلمانية ومنهجياتها الفكرية، وعلينا هنا أن نتذكر أن ذلك يترافق مع التفتح العقلي الناتج عن ارتفاع عدد الجامعيين فما فوقهم، والمقصود بتلك المشروعات: ما ينتجه مفكر مشهور تحت مسمى واحد، أو ينتجه تيار فكري مشهور تحت نافذة واحدة، ومن الأمثلة البارزة هنا:

الثابت والمتحول لأدونيس، كتب عبد الرحمٰن بدوي الوجودية، نقد العقل العربي للجابري، التراث والتجديد لحسن حنفي، نقد العقل الإسلامي لأركون، وغيرها، أما نوافذ التيارات

الفكرية فمنها: مركز دراسات الوحدة العربية للفكر القومي، ومركز الفارابي للفكر الماركسي، وغيرها.

هذه المكتبة الضخمة الجديدة على المثقف المسلم ظهرت بكثافة في سنوات قليلة، مركزة على موضوعات جديدة، أو مستخدمة أدوات جديدة، قابلها حالة استهلاك ثقافية لافتة، ومما تتميز به هذه المشروعات في السنوات الأخيرة توجهها للتراث الإسلامي، بالنقد والتأويل، وهذا التراث هو النقطة المشتركة بين هذا النشاط الفكري وبين النشاط الإسلامي الدعوي والعلمي.

وقد وقع تحول غريب من طائفة مثقفة نحو هذه الكتابات فتأثرت بها، ووقعت فريسة سهلة لشبهاتها، فهذه العقول الطرية المزودة بآليات منهجية ذات رغبة استهلاكية عالية، تجد في هذا الإنتاج الضخم متعة، وبما أن الاصطدام بها جاء في وقت قصير ـ فقد كان مربكًا لهذه العقليات اللينة، ولذا نجد مثل هذا الإنتاج الفكري في بيئات أخرى مهمل؛ لتعودهم عليه واطّلاعهم عليه وعلى غيره، بخلاف من اطلع عليه لأول مرة، ولم يعرف غيره، فتجده مبهورًا به، منجذبًا إليه، متابعًا له، متحمسًا للحديث عنه، وهو يشبه صاحب الأشبار الثلاثة في مقولة الشعبي: العلم ثلاثة أشبار؛ فمن نال منه شبرًا شمخ بأنفه وظن أنه ناله، ومن نال الشبر الثاني صغرت إليه نفسه وعلم أنه لم ينله، وأما الشبر الثالث فهيهات لا يناله أحد أبدًا.

وهذا في العلم النافع، فكيف من وقع في غيره، وقد قيل:

العلم ثلاثة أشبار، من دخل في الشبر الأول: تكبّر، ومن دخل في الشبر الثاني: تواضع، ومن دخل في الشبر الثالث: علم أنه ما يعلم.

ومع أنهم في الأصل مقلدون مستهلكون، إلا أنهم يتحولون من جهة أخرى أساتذة، فينشر الواحد منهم هذه الأفكار نشر المنبهر بها، ويستهويه هذا الأمر، ويظن من نفسه أنه قد بلغ مبلغ المفكرين والمثقفين، فيكتب مقالات الرأي في الصحف، ويحاضر، ويشارك في المنتديات الحاسوبية، وهو في أحسن أحواله ربع مثقف، أو أقل من ذلك، وقد قيل بخطر من هو أحسن منه حالًا، ومما نقله ابن تيمية عن بعض الناس: «أكثر ما يفسد الدنيا: نصف متكلم، ونصف متفقه، ونصف متطبب، ونصف نحوي، هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد البلدان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد اللسان» [الفتاوى ١١٨/٥]، فربع المثقف المقلد لهذه المنظومات الفكرية يفسد العقول ويربكها ويتسبب في تذبذبها.

معالم مهمة حول المشروعات الفكرية:

- اهتمامها بالتراث الإسلامي بعمومية مع استثمار دراسات المستشرقين.
- التركيز على النقد والتأويل الجديد.
- ترك النشاطات الفكرية المجردة والإبداع الفكري - حسب زعمهم - إلى دراسة التراث.
- الإقبال البارز من المثقفين نحو هذه الكتابات، وتأثر بعضهم بها.

- تأثير الكتب والكتابات؛ الشعوري، واللاشعوري، على المتلقي.

- أثر فتح المجال في صحافة الرأي، والشاشة الفضائية الثقافية، والمنتديات الحاسوبية في الاهتمام الفكري والثقافي.

ثالثًا: الإعلام وسياسة تحويل المسارات

قد يقول البعض ـ وحق له ذلك ـ إن جوهر مشكلاتنا في السنوات الأخيرة يرجع للإعلام، ففي ظرف عشر سنوات وقع تحول كبير وعميق في بابي الإعلام والاتصال، فقد بدأ البث الفضائي حوالي ١٤١٠هـ، بينما بدأت الإنترنت في نهاية هذا العقد، حوالي سنة ١٤١٩هـ، ويمكن أن نتأمل في دورين خطيرين هنا لهما علاقة بهذه الدراسة، أولهما: أن هذه المساحة الهائلة المفتوحة سمحت للمنقلبين أو للمترددين بالانخراط في نشاطاتها، والثاني: أن هذه المساحة الجديدة لم تكن بذاك النقاء، أو الاعتدال، أو الموضوعية، بل كان المشهور منها مهاجمًا لتدين البيئات الإسلامية بسبب طبيعة الإدارة المتحكمة في أغلب نوافذ تلك المساحة.

من المفيد هنا التذكير بالأدوار الإعلامية من جهة نوعية وأسلوب الوسيلة الإعلامية:

فهناك **المقروء**، وهذا موجود في الصحافة الورقية بكل أشكالها، وفي مواقع الشبكة، وفي منتدياتها.

أما **المسموع** فهو الإذاعات التقليدية، أو العصرية عبر

الشبكة، أو عبر البث الفضائي، فضلًا عن الشريط، ونوافذ جديدة في الشبكة، من أشهرها قنوات المحادثة الثقافية على الشبكة، فهناك غرف ذات طابع تدميري للعقليات البسيطة.

وأخيرًا **المرئي** الذي يضيف الصورة المتحركة للصوت وربما للكتابة، وأشهرها القنوات الفضائية، بساعاتها الثقافية، وبرامجها الفنية التأثيرية ـ لا الترفيهية، فضلًا عن برامج الملتيميديا على الشبكة، وغيرها من البرامج التي تقف وراءها مؤسسات وشركات لا يستهان بها، ويحملون رؤية؛ بل أكثر من ذلك يحرصون على بثها من خلال تلك الوسائل.

نكتفي هنا بأثر واحد له علاقة مباشرة بموضوع النقاش، وهو التلاعب بمسارات المتلقين؛ الفكرية أساسًا، والسلوكية والوجدانية وطريقة العيش تبعًا.

وهذا التلاعب هو نموذج لصناعة الانقلابات الفكرية بطريقة ناعمة عبر الوسيط الإعلامي بمحتواه الفكري والفني، وقد لا نستغرب اليوم من تأثير برنامج على شخص، فيمسي على حال ويصبح على حال، وقد يشاهد أحدهم فيلمًا سينمائيًا عبر وسيط إعلامي، فتعلق به شبهة قوية تحيّره أيامًا أو شهورًا وربما تعصف به وتقلب حياته، وقد يفتح أحد المشهورين (إنترنتيًا) موضوعًا في أحد المنتديات الناجحة، فيدخل موضوعه مئات الناس، ويعلق العشرات، بل نجد بعض مقالات الرأي في جريدة يومية ذات موقع على الشبكة تأتيها تعليقات بالعشرات، مما يدل على حجم التفاعل ومن ثم التأثر والتأثير المتوقع.

جدول يلخص الأدوار الإعلامية بحسب نوعيتها

الوسيلة	صورة التعبير	ملحوظة
المقروء	**الخبر**: مشكلة التلاعب بالأخبار، نتصور كثافة الأخبار التي تشوه التعليم الديني، أو تغطي نشاطات أهل الاحتساب، فقد تجد من كان متحمسًا لهذا التعليم، أو ذاك النشاط قد انقلب عليه بسبب كثافة الأخبار السلبية.	ـ قيمة المعلومة
	الرأي: كانت مقالات الرأي قبل سنوات ـ قليلة ومحدودة، ثم في السنوات التالية كثرت بشكل عجيب، وكثر متابعوها، وقُل مثل ذلك في المقالات الموجودة على الشبكة، وبعض الكتاب عبر مدونته يزار من قبل المئات.	ـ الفرق بين الأخبار والآراء ـ التيارات الفكرية والآراء ـ دور النوافذ في صقل المواهب
المسموع	مدخل الأذن له أهميته كمدخل العين، والصوت وتركيبة الكلام المسموع ذات أثر عميق في السامع، وقد قال رسول الله ﷺ: «**إنكم تختصمون إلي ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضي له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئًا فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار**» [متفق عليه] من سمع آية تتلى فاستقام ومن سمع شبهة فهوت به.... فكيف وقد ازينت بأقوى المؤثرات... الموسيقى الحزينة في عرض جرائم ذات طابع ديني...	ـ الكلمة الباردة تلبس صوتًا ـ الألحن بالحجة ـ المؤثرات الصوتية ـ الصوت الجميل
المرئي	إضافة المشهد للصوت له أثره، وليس ببعيد عنا قصة موسى عليه السلام، فقد سمع عن انحراف قومه بعد تركه لهم، ولكنه عندما عاد ورأى حالهم رمى الألواح من هول ما رآه... وكما قيل: فليس الخبر كالمعاينة، وليس من رأى كمن سمع من الأمثلة: ـ كثافة البرامج الفنية حول تدين الشباب ـ كثافة البرامج الثقافية حول التوجه الإسلامي	ـ الشاشة وكسر التواصل ـ صناعة التوجيه من مرسل ـ المجتمع ـ غالبًا ـ مع الشاشة
ملتيميديا	هناك جهد كبير لدمج الثلاثة في واحد، أو على الأقل جعلها متقاربة، كأن يكون المتصفح فاتحًا لعدد من الصفحات، فيقرأ هنا، ويسمع هنا، ويشاهد هناك، وربما صفحة متطورة تجمع الثلاثة.	ـ انجذاب الشباب والمثقفين لهذا النوع

بعد هذه اللمحة الموجزة التي تحلل لنا هذا (البعبع) الإعلامي في فقرات مصغرة واضحة نصل لمقصود العنوان؛ أي: التلاعب بالمسارات الفكرية، ولنفترض مؤقتًا أن الإعلام كائن حي، يعي ما يقوم به، والمقصود في النهاية أن هذه المنظومة الإعلامية في غالبها تسير وفق رؤى متقاربة، وبهذا فهي تتحرك في تأثيراتها بصور متقاربة، ومن أشهرها التلاعب بالمسار الفكري ومن ثم التقلبات: إما الداخلية غير المعلنة، أو تلك التي تنفجر بصاحبها، ثم هو لا يبقى عليها، بل ينتقل منها بعد فترة لمسار ثالث.

ومن الأمثلة ما نجده من حديث حول قضايا المرأة، فلو افترضنا أن أحد الناس تابع برنامجًا ثقافيًا منوعًا حول موضوع من موضوعات المرأة الشائكة، وقد كان له موقف معين من ذاك الموضوع، ولكن بهرته المادة الثقافية، وقادته لاتخاذ بعض المواقف الجديدة، ثم رأى برنامجًا ثانيًا وثالثًا، واطلع على بعض المقالات، وتصفح مواقع بارزة، ووجد تغطيات إخبارية حول الموضوع تصب في نفس القضية، ويكثر الطَّرق، ومع كثرة الضرب على دماغ المتلقي يستسلم في النهاية داخليًا، أو يعلنها صريحة.

ولكن مجموعة أخرى تتابع صحيفة معينة، ومواقع معينة، وبرامج معينة، وتطرح من وجهة أخرى نفس الموضوع، ومع الأيام يقع لهم ما وقع للمجموعة الأولى.

وقد يقع تبادل أدوار، فينصرف بعض أفراد المجموعة الأولى للمؤثرات الموجودة عند الثانية، فيقتنع بها وينساق معها، والثانية تذهب للأولى، وهكذا.

ومن الملاحظ أن ضحايا هذا التلاعب الإعلامي يصبحون مرنين بشكل كبير، أو قُل إمعيين، تنجح وسائل الإعلام في هدم عناصر الممانعة الذاتية، وتكوّن ذواتَ هلامية، تتشكل بيد المتلاعب بها كيفما شاء، ومن المكر الإعلامي أنه يُظهر لهذه الذوات الهلامية والشخصيات الإمعية أنهم أحرار في اختياراتهم، وأنهم يرفضون التبعية والتوجيه والأبوية، وغيرها من المفردات والمفاهيم، مع أنه في النهاية ألعوبة بهذا الكائن الإعلامي الماكر.

رابعًا: عولمة التقلب

مما له صلة بما سبق من الناحية الإعلامية عولمة التقلب، وهذا الأمر ظهر بارزًا بعد توحد الرأسمالية في السيطرة عبر الشركات العابرة للقارات وأذرعتها الاقتصادية الأممية؛ مثل: صندوق النقد الدولي، والبنك الدولي، ومنظمة التجارة العالمية، وغيرها.

فضلًا عن الذراع الإعلامي والاتصالي الضخم، والمقصود هنا أن هذه الرأسمالية بكل أذرعتها تتوجه لسلب الهويات الصلبة من أصحابها، وتحويلهم إلى أناس طيعين مرنين يتقلبون كما تهوى الرأسمالية، ولذا فهي بما تملك من قدرات مهولة تدعم كل القوى التي تحقق أهدافها، بصورة صريحة أو بطريقة غير صريحة، وهي تمارس هذه الأدوار عبر وكلائها في أصقاع الأرض، وهذا يوضح لنا أن البيئة الجديدة بيئة تتداخل فيها عناصر التأثير، وبخاصة قوى الرأسمالية الضاغطة، فتجعل أغلب المجتمعات مجتمعات متقلبة،

ويكون التقلب من خصائص الروح الجديدة لمجتمعات ما بعد الحرب الباردة.

ظهرت تيارات فكرية علمانية تحذر من هذه العولمة الرأسمالية، وبخاصة تلك التي تنزع عناصر الممانعة من الكائن البشري، وتحوله لكائن هلامي، تتلاعب به الشركات ووكلاؤها، ولكن مشكلتها أنها من جهة المرجعية الفكرية تبقى مرجعية علمانية، ولكن ذكرها مفيد للمجتمعات المستلبة.

هنا يبرز تقلب المجتمع بعمومه؛ أي أنه يصبح بيئة واسعة للتقلب، وفضاء واسع للتغير دون هدف واضح، ومعنى ذلك أنه يكون موطنًا خصبًا لحياة تقلبات أخرى أكثر خطرًا داخل هذه الأجواء العامة.

وهذا يعني: أن التقلب الاجتماعي بمظهره السلوكي البارز له أبعاد فكرية، ومن الأمثلة في ذلك صناعة الأذواق، ومن نماذجها: الأذواق في معايير الجمال، والزينة، واللباس، ووسائل العيش في المنزل، ووسائل النقل، ووسائل الترفية ـ بل وحتى المشروب والمأكول، فهذه الأذواق متقلبة تقلب الشركات في منتجاتها، فقد نجحت في تذويب ممانعة الفرد، ثم تحويله لذات إمعية، كلما ظهر منتج جديد أقنعت أتباعها المستهلكين أنه موضة الساعة، والنموذج الجمالي الأرقى، والنسخة الوحيدة في فترة زمنية معينة، وأنت أيها المستهلك الذليل تمارس أدوارك العظيمة الذكية في اقتناص الجديد قبل أن يسبقك إليه غيرك.

أي أن هذا التقلب الحقير ليس في ذهن صاحبه سوى التطور الرائع.

وسنجد صورة هذا السبب بارزة في نوع كبير من أنواع التقلبات.

خامسًا: الأحداث الكبرى التي هزت العالم

تعيش البشرية أحيانًا فترات زمنية هادئة، فيستقر الحال، ولا تقع تغيرات أو تقلبات، ولكن ليس الأمر دائمًا كذلك، فقد تأتي فترات أخرى متفجرة بأحداث كبار، تقلب العالم رأسًا على عقب؛ إما للخير، مثل ظهور النبوات في تاريخ البشرية، ومثل الدعوات الإصلاحية الكبيرة الناجحة، أو للسوء مثل بعض الفتن والحروب المدمرة التي يعقبها ضعف أهل الحق وسيطرة أهل الباطل، أو لوضع محايد يمكن استثماره هنا أو هناك، في الخير أو الشر، مثل المكتشفات البشرية، فإن وظفت في الخير انتفع الناس بها، وإن وظفت في الشر كان الشقاء بها.

وفي زمننا المعاصر نجد الأمور الثلاثة، ولكن يبقى الثاني أكثر شهرة، ومن ذلك مثلًا: سقوط جدار برلين، وسقوط المعسكر الشيوعي من خلفه، ومن ثم انهيار اليسار العربي، والتحامه مع التيارات العلمانية الرأسمالية، وحروب مدمرة في مناطق العالم الإسلامي: من أفغانستان، إلى الشيشان، والبوسنة والهرسك، إلى حروب الخليج الضخمة، فضلًا عما يحدث في الصومال وأمثالها من نقاط الصراع، ومشكلات الصراع بين دول وجماعات ثائرة، ومشكلة اصطناع (بعبع) الإرهاب وأثره في توجيه الجهد العالمي بكل مجالاته السياسية والاقتصادية، والأمنية، والحربية، والفكرية، والثقافية، والفنية نحو المواجهة

مع هذه (البعبع)، أو ما يسمى بـ«فوبيا» الإسلام، فهل يمكن الاستهانة بهذه الأحداث؟

وقد توافقت مع هذه الأحداث اكتشافات علمية قلبت الأوضاع العالمية، وبخاصة في عالم الاتصالات، فظهر البث الفضائي، ثم ظهر عالم الإنترنت، وهي اكتشافات خطيرة، وبخاصة أنها تحتاج لأموال طائلة حتى تقوم، وهذا لا يمكن أن يتحقق إلا بالشركات الرأسمالية العملاقة التي أحكمت قبضتها على هذه المكتشفات.

ولكل هذه الأمور تبعات فكرية وأهمها ما يحدث من تقلبات، فالمثقفون والعلماء والمفكرون في النهاية بشر، وقد يقع بعضهم فريسة التحولات الكبرى، ولا يشترط أن تظهر نتائج الأحداث العالمية في وقت واحد في كل مكان.

قد يقول البعض إن من نعم الله علينا ودلالة على قوتنا أننا لم نَفْنَ إلى الآن، وأن الانقلابات ما زالت محدودة، بل ويمكن فهمها وتفسيرها، بل إنها حتى مع توسعها غير مستغربة في مثل هذه الأحداث الكبار. ولكن هذا قد يفسر في أمم ضلت طريقها وفقدت مسالك الهداية، فما إن تأتيها مثل هذه النكبات حتى تقع فيها التقلبات المهولة، أما المسلم فهو مُعان بعون الله له، ويجد الوحي محفوظًا، فلا يقع في حيرة، حتى في أحلك اللحظات تجده يرجع من قريب، ومن هنا تحتاج الأمة في مثل هذه الأزمات لمن يثبتها ويذكرها حتى تمر العاصفة، وهذا الأمر منوط بأهل العلم والفكر والدعوة ممن يقتدى بهم.

معالم مهمة حول الأحداث الكبرى:

- من دلالات حديث حذيفة رضي الله عنه عن الفتن التي تموج كموج البحر، وفي فتح الباري لابن حجر عن حذيفة قال: لا تضرك الفتنة ما عرفت دينك، إنما الفتنة إذا اشتبه عليك الحق والباطل، [١٣/ ٤٩].
- رغبات القوى العالمية السريعة.. تذهب ـ ربما سريعًا.
- تركيز القوى على تكثيف الأفكار المناسبة في مناطق المشكلات بعد الأحداث الكبرى.

كانت هذه الأسباب هي الأظهر في التحولات الفكرية، وسبب الاكتفاء بها أنها واضحة في المجال الفكري، وقد يقترح آخر أسبابًا أخرىٰ، ولكن أتمنىٰ في طرح أي سبب أن يتمّ التأمل فيه، ويُنظر هل هي فعلًا ذات علاقة بالتحولات الفكرية، أم هي أوضح في موضوعات أخرىٰ.

أما سلسلة الأسباب هنا، فتبدأ بالذات: من جهة الجهل والعلم والهوىٰ، ثم تبحث عن علاقة الذات بالأفكار البارزة، ثم علاقتها بالمحيط الإعلامي والاتصالي بمحتواه الفكري الواسع، ثم علاقتها بمحيط أوسع بجانبيه البارزين: العولمة ذات الوجه الصاعد، وآلام المرحلة بحروبها ومآسيها وصعوباتها.

ومن هذه الأسباب ندخل في القسم الثاني من الموضوع، وهو التقلبات والتحولات.

القسم الثاني

التقلبات

تظهر ـ بعد البحث والتأمل ـ خمسة تقلبات برزت في هذه المرحلة، يمكن إعادتها للصور الفكرية المتشكلة في البيئة الحية الحالية، وهي:

١ ـ من إسلامي إلى إنساني.

٢ ـ من التعبد إلى التخلق.

٣ ـ من السُّنَّة إلى البدعة.

٤ ـ من النشاط إلى الفتور.

٥ ـ من المروءة إلى الإمعية.

وقبل الحديث عن هذه التقلبات الخمسة ـ غير الحسنة ـ يجدر

هنا التذكير بأمر في غاية الأهمية: فمع وجود هذه المظاهر السالبة ـ إلا أنه في المقابل يبقى الظاهر للمتأمل: بأن التحول من الحال السيئة إلى الحال الحسنة هو الأبرز وهو الأكثر، ودلائل ذلك كثيرة ولله الحمد، ومنها: كثرة المقبلين على التدين من الجنسين، والتميز النوعي فيهم، من جهة العناية بحفظ كتاب الله، والحرص على طلب العلم، ومن جهة امتلاك الكثير منهم إمكانات عالية متنوعة، وحرص طائفة منهم على صقل المواهب وتنميتها وتطوير الذات، ودخولهم مجالات غير تقليدية وإبداعهم فيها، إلى غير ذلك من المبشرات الواضحة.

وهذا يعني أن تركيز البحث على التقلبات لا يعني انتكاسة مخيفة هدمت كل الخير الموجود، وإنما مقصده التركيز على ظواهر موجودة، قد يؤدي تغافلها، أو السكوت عنها ـ إلى اتساعها وتأثيرها المستقبلي إن لم تواجه تلك الظواهر بموقف علمي ودعوي وإصلاحي مناسب.

أولًا: من إسلامي إلى إنساني

هناك معرفة اجتماعية مقبولة بوجود طائفة أثّر فيها الفكر العلماني الحديث، فأبعدها بدرجات متفاوتة عن التصور الإسلامي، ويغلب على هؤلاء أنهم نشأوا نشأة إسلامية غير عميقة، فلم تتمكن منهم معارف الإسلام تمكنًا قويًا، أو تمكنت منهم أوضاع بدعية مكان السُّنَّة، بسبب الأسرة والبيئة التي عاشوا فيها، ثم تلقفتهم الأفكار العلمانية ببهرجتها فأثرت فيهم، فساروا في ركابها.

وقد كان لكل مجموعة وجهة هي مولّيتها، فمنهم القومي،

ومنهم الماركسي، ومنهم الليبرالي، ومنهم الوجودي، ومنهم الفرويدي، وغيرها من المسميات، ومنهم المتغرب الذي أخذ في كل شأن من شؤون حياته بطرف من الفكر الغربي، ومن النادر أن تجد الشخص المتدين عن علم وبصيرة يحدث له مثل هذا الاستلاب.

ولكن في السنوات الأخيرة تفاجأ الكثير بمجموعة ممن كانوا على استقامة وصلاح ـ فيما يظهر للناس ـ، ثم إذا بهم ينقلبون مائة وثمانين درجة، من التدين إلى نقد التدين والهجوم على الدين وأهله، وقد تقمصوا بعض المفاهيم الحديثة، معلنين من خلالها وجهتهم الجديدة، ولكن قد يكون أشهر هذه المفاهيم هو «الإنسانية»، وهذا الاستقطاب من قبل هذا المفهوم له ما يفسره في السنوات الأخيرة، بعد أن فشلت الأفكار الشمولية من قوميات ويساريات ووضعيات[١] قمعت الإنسان الغربي وأفسدت عليه حياته، فضلًا عن الحروب المدمرة التي أرهقت القارة الأوروبية، فجاء التذكير بالإنسان؛ وذلك أنهم قد خسروا الدين من قرون بعيدة.

قد وضعتهم أحداث عالمية في الواجهة، ووظّفت خبراتهم الإسلامية في «نقد التدين»، وما يترتب على ذلك من نقد الدين في صور كثيرة.

---

(١) القوميات من أشهرها: النازية والفاشية و...، واليساريات مثل: الشيوعية في المعسكر الشرقي والبلاد التي اتبعته في بقية القارات، أو الأحزاب الشيوعية والماركسية، والوضعيات مثل: التيارات العلموية ـ المقدسون للعلم المادي ـ التي قدست العلم الطبيعي ونتاجه الصناعي والتقني، وأهملت الإنسان وحاجته للدين.

تأتي دعوى التمركز حول الإنسان كامتداد أو تأثر بصورتها الغربية العلمانية، وهذه الظاهرة الفكرية الغربية قد قامت من قرون، وأوصلت أتباعها للإلحاد، بدعوى أن الفكر القديم كانت عنايته بالإلـٰه، وأن تلك العناية لم تعد تنفع الآن، ومن هنا جاء التوجه نحو الإنسان معارضًا التوجه نحو الدين.

ومما يُتَعجب منه: وجود مثل هذه الأقوال الإلحادية في بعض الأعمال الأدبية التي أنتجتها هذه المجموعة، وتكون صريحة ووقحة في المنتديات الحاسوبية، وبخاصة مع خفاء الأسماء والظهور خلف ألقاب مستعارة.

والملاحظ أن الجهد الذي ميّز خطاب هؤلاء المنقلبين في هذه المرحلة هو «**النقد**»، فهناك مساحة من الحريات أتيحت في السنوات الأخيرة، وقد فرح بها هؤلاء، فانطلقوا في اتجاهات كثيرة، مركزين على التدين وأهله، وغلاتهم لا يحيلون إلى تصور ديني بديل، بل يصرحون بترك الدين جملة، ومما خدمهم الحملة العالمية على الإرهاب، فإذا أردت أن تسلم من أية مؤاخذة، أو أحببت أن تجد من يدافع عنك، فعليك عند سبّ الدين وأهله، أن تربط فعلتك (ببعبع) الإرهاب.

وهذا يعني أن ظاهرة النقد لم يكن نجاحها وانتشارها بسبب متانتها الفكرية ومصداقيتها بقدر ما هو استغلال للظرف العالمي، ومما يؤكد ذلك أن طائفة كبيرة من هؤلاء لا يُعرَفون باهتمامات فكرية عميقة سابقة، مع تشدقهم هذه الأيام بمصطلحات ومفاهيم وأسماء فلسفية صعبة، فيتساءل المتابع: هل يمكن أن يكون هؤلاء

في أشهر قليلة قد تمكنوا ـ ولو بقدر معقول من هذه المنظومات الفكرية؟!!

من الأسئلة المهمة هنا، هل نتوقع لهذا الانقلاب بوجهته النقدية أن يوجد له أثر سيئ وخطير على بيئتنا؟ وما الأدوات النقدية التي استخدمها هؤلاء؟

السؤال الأول إجابته صعبة، فالوضع الحالي يختلف عن أوضاع سابقة، وبخاصة في جوانب التقنية المتطورة التي أتاحت للجميع التعبير عن الأفكار، وبأساليب مختلفة، والذي أتوقعه ـ والعلم عند الله ـ أن هذه الظاهرة مرتبطة بظرف، وعادة ما تتغذى مثل هذه الظواهر من أوضاع محددة، فإذا غابت تلك الأوضاع اختفت معها أفكارها، ثمّ إن مما يميز عالم الفكر المعاصر سرعة اضمحلال الأفكار، فلم تعد تعمّر طويلًا مثل أفكار الأزمان الماضية، وحتى يبرر المتغربون مخرجًا لتحولاتهم الفكرية، تجدهم يقولون: إن هذه هي حال المفكر الحقيقي، فهو لا يبقى على حال مثل الجمادات، بل هو إنسان بقلب وعقل، فتجده يتغير!.

أما الأدوات النقدية فلا نجد أدوات، ولكن نجد أساليب، وهذه الأساليب أصبحت كالأدوات التي تحتوي نشاطهم النقدي وتلفّه، ومن أمثلتها:

- نقد المؤسسات الدينية.. أشهر أداة: (مختطفة).
- نقد موضوعات اجتماعية وبخاصة ما يتعلق بالمرأة.. أشهر أداة: (ارتباطها بالعرف).
- نقد أصول دينية.. أشهر أداة: (التفسير الأحادي).

• نقد الدعاة والجماعة الدعوية وأهل الدعوة.. أشهر أداة: (السلطة أو المصلحة).

فلو قام باحث بجمع مقالات الرأي، وهي التي تميّز بها هؤلاء، فسيجد الغالب عليها هو طابعها النقدي، ومع كثرتها فهي ترجع لأدوات محدودة، وبحصر هذه الأدوات يمكن بعد ذلك اتخاذ استراتيجية فكرية تناسب تلك الأدوات بدل متابعة المقالات التي لا تنتهي.

ثانيًا: من التعبّد إلى التخلّق

مما تميزت به مرحلة مضت: مركزية التعبد في الدعوة، والمقصود هنا التعبد بمعناه الجامع، عقيدة وشريعة وسلوكًا، ومن ذلك القيام بالفرائض والمواظبة على السنن والحرص على النوافل، ومن ذلك ما نجده من إقبال مميز نحو هدي النبي ﷺ في كل الشؤون، ومع بروز العناية بالحديث النبوي وظهور كتب السُّنَّة محققة في طبعات جميلة أقبل الشباب على معرفة السُّنَّة، ومن ثمّ العمل بها.

وقد تظهر أخطاء في بعض التطبيقات، وهذا الأمر دعا أحد الفضلاء في إخراج دراسة بعنوان «السُّنَّة في تطبيق السُّنَّة»، ولكن تبقى الظاهرة المميزة هي الإقبال نحو السُّنَّة؛ أي نحو التعبد.

ومما ترتب على ذلك في الوعي الدعوي ـ الحرص على هذا الكمال في تقييم الأشخاص، والحرص على تربية الناس عليه، ووضع التعبد في مركز الهمّ الدعوي، ومن ثمّ فلم يكن هناك انفصال بين التعبد والتخلق، فالتخلق عنصر مهم من عناصر التعبد.

ولكن في المرحلة الجديدة وقع انقلاب عند طائفة في العلاقة بين المفهومين: التعبد والتخلق، فتسرب الإهمال للتعبد، وارتفع الحديث عن التخلق، وهو مفهوم عام سندخل فيه صورًا مختلفة مثل: التحضر، والعصرنة، والتسامح، والحوار، وغيرها من المصطلحات التي وقع فيها الخلل من قبلهم.

يرتبط هذا التوجه بالإعلام الجديد: البث الفضائي، والإنترنت، والانفتاح على المجتمعات القريبة والبعيدة، المسلمة وغير المسلمة، ولارتباطه بالتحولات الإعلامية والاتصالية، فهو جديد نسبيًا، ولهذا لم تتضح كل معالمه، باستثناء تركيزه على مفهوم «التخلق»، ومن هنا ظهر دعاة ليس عليهم معالم الهدي النبوي في المظهر، وتميزوا بالأسلوب القصصي حول الأنبياء عليهم السلام، أو الصحابة رضي الله عنهم، أو الصالحين من الأمم الماضية، أو من الأمة الإسلامية، أو مشاهير العصر، ويبرزون صورًا معينة لأصحاب هذه القصص، يغلب عليها جوانب التخلق.

مثل هذه المجموعة تحتوي على فضائل لا يصح إغفالها، ويملك أفرادها مواهب وقدرات ممتازة، وعندهم حرص على تطوير قدراتهم الاتصالية، ولهم نشاط إعلامي مميز، ومع التحولات العالمية، وبروز البث الفضائي، واتساع مساحة البث، وتوجه ملّاك القنوات إلى التنويع البرامجي، تمّ استثمارهم وفتح الشاشات لهم.

ومن ذلك البرامج الدينية التي اتسعت مساحتها في الفضائيات، فوجدوا أفضل مجموعة يمكن استضافتها هي هذه المجموعة، وقد سدّوا ثغرة كبيرة في الجوانب السابقة.

ومع هذه المميزات، هناك مشكلات ظهرت مع هذه المجموعة، وأبرزها: أنها جذبت معها أعدادًا من الناس ممن كانوا يحرصون مع التخلق على التعبد، والأخذ بعزائم الأمور في ذواتهم، وحرصهم على رفع من حولهم إلى تلك المنزلة، ولكن بدأت الهمم في الضعف، ومن هنا جاء التركيز على جوانب التخلق والتعامل الجميل، والآداب الحسنة، والسلوك الجيد.

الحقيقة أن معالم هذه المجموعة لم تكتمل للدارس، ولكن يمكن أن نذهب لأقصى يسارها، حتى يمكن أن نتصور ما تصل إليه، فنتصور شخصًا أخلاقه رائعة، وعلاقته بمن حوله جميلة، ويتحرك في أمور تعجب كل الناس، ولكنه مهمل لجوانب الاعتقاد، وجوانب العبادات المحضة، ولا يركز على التحذير من الكبائر - فضلًا عن الأمور المشتبهة، ولا يقوم بواجب النصيحة في الأبواب الشائكة.

وكما تميز الاتجاه الأول بموقفه النقدي للتدين، فهذا الاتجاه تميز بدعوته للتخلق، وهو بهذه الطريقة لم يصنع عداوة مع غيره، على الأقل في خطابه المفتوح، ويمكن التوقف مع أصلين مشهورين يجمعان الكثير من مفردات نشاط هذا الاتجاه، ويمثلان علامة لهذا الانقلاب الجديد، وهما:

١ - مفهوم التسامح.

٢ - مفهوم التيسير.

وهما مفهومان جميلان، والثاني منهما من المفاهيم الإسلامية

الأصيلة[١]، والأول من المفاهيم التي دارت حوله أصول إسلامية مهمة، وقد وقع معهما تجاوزات من قبل هذه المجموعة، ولا سيما ممن قلّ علمه وتوسعت ثقافته، فيظن أن هذه الثقافة تؤهله للحديث عن أصول عظيمة وفق هذين المفهومين، والأمر ليس بهذه السهولة، فأمور الدين تقوم على العلم؛ أي: على الدليل، والأدلة هنا هي: العلم بالكتاب، والسُّنَّة، والإجماع، والقياس، وهذه الأدلة لها علوم كبيرة ـ مَن أحسنها فهو القادر على الحديث العلمي في مجال الدين.

وأظن أن التركيز في توضيح هذين المفهومين له أهميته، وذلك من باب التناصح الجميل بين المسلم وأخيه المسلم، وفي هذا المقام لم أجد على المستوى الشخصي من الدراسات ما يحل الإشكالات المرتبطة بهذين المفهومين، باستثناء دراسة مميزة لإبراهيم الطويل بعنوان: «منهج التيسير المعاصر»، وموضع التفصيل فيهما ليس هنا، وإنما المقصود التنبيه لأهمية وضعهما موضع العناية.

مما أسهم في رفع **المفهوم الأول** بالصورة التي يقترحونها أحداث الصراع بين المسلمين والغرب، وحقيقته هو هجوم الغرب على المسلمين متذرعًا بذرائع مختلفة، ومنها أن الإسلام يقوم على الكراهية والعنف وعدم التسامح وغيرها من الأمور المرتبطة بهذه المنظومة المفاهيمية، وقامت الطائفة الأولى المنقلبة إلى الإنسانية بتأكيد هذه الدعاوى، مستشهدين في ذلك بأصل الولاء البراء، وأنه

---

(١) هناك من يفرق بين «اليسر» وهو الذي قام عليه الإسلام، وبين «التيسير» وهو الذي قامت عليه أفكار هذا الاتجاه.

أصل يزرع الكراهية بين الناس، وأنه السبب في العداوة بين فرق المسلمين، فهناك براءة من المبتدعة، ويترتب عليها معاملة جافة ومقاطعة وهجران، وهناك براءة من الكفار، ويترتب عليها ما هو أكبر مما سبق، وهناك انفصال حتى بين المتدين وغير المتدين بسبب الولاء والبراء، فالمتدين يوالي فقط أهل التدين، ويبتعد عن أهل الفسق من مرتكبي الكبائر والمعاصي.

جاء الحل من قبل الطائفة الثانية بالتركيز على «التسامح» بدل «الولاء والبراء»، فتنحل في نظرهم المشكلة مع الفاسق والمبتدع والكافر المسالم، وقام نشاط كبير ـ في التأليف، والمؤتمرات، والندوات، والبرامج الإعلامية ـ حول الحوار والتسامح وما في معناهما.

يعكر صفو هذا الموقف أن نصوص الولاء والبراء واضحة وصريحة، وكلام العلماء معروف ومشهور، مما يعني أن موقفهم يصادم نصوصًا صريحة وأصولًا واضحة متفق عليها، ولكن أصل التخلق جعلهم يتساهلون في إهمال أصل الولاء والبراء، ويعيدون تفسيره من جديد بما لا يتعارض مع أصل التخلق، بينما الواجب على المسلم الجمع بينهما.

نعم التحولات الإعلامية والاتصالية قربت سكان العالم من بعضهم، وهذا التقارب يفرض نوعا من الدبلوماسية من أجل سهولة الوصول إلى الناس وتقبلهم لما معنا من دين، وفي نفس الوقت أصبحت عمليات التشويه سهلة؛ بل وخطيرة، فإن الافتراءات تبلغ الآفاق في لمح البصر، ولا شك أنه من المهم هنا الانتباه للخطاب

الإسلامي الموجه عبر وسائل الإعلام، بحيث نجتهد قدر الإمكان في تضييق الأبواب أمام المغرضين حتى لا يُكذّب الله تعالى ورسوله ﷺ.

وبما أن عقيدة الولاء والبراء عقيدة ثابتة؛ فهي في حاجة لنقاش حول كيفية طرحها في زمن الفضاء المفتوح، فإن الأصول الثابتة قد تحتاج لطرائق مختلفة وأساليب متنوعة تناسب الأزمان والبيئات المختلفة، فيكون التغير في كيفية الإيصال وليس في الأصل.

أما **المفهوم الثاني**؛ فالحديث عنه أقدم، والنشاط فيه أكبر، ومع ذلك فقد برز واضحًا مع الفضائيات وبخاصة في برامج الإفتاء، أو الحديث عن قضايا العصر من وجهة دينية، وقد فتحت تلك القنوات الباب لطائفة معينة ممن لهم معرفة بالعلم الشرعي، وأقفلت الباب أمام غيرهم.

وقد يكون لانتشار مثل هذا المفهوم أسباب أخرى متعلقة بأوضاع البيئة الجديدة، وهي أوضاع معقدة، ومعالجة هذه المستجدات تتخذ طرقًا أهمها ثلاثة: الانغلاق، أو التيسير، أو التأصيل، أما الانغلاق فهو طريق البحث عن سلامة متوقعة موهومة، وأما التيسير بمعناه الضبابي فهو طريق البحث عن السهولة دون النظر للعواقب، وأما التأصيل فهو الذي يركز على الحق، وفي طلب الحق جوهر التيسير الذي يتحدث عنه أهل التيسير، وحقيقة السلامة التي يرغب فيها أهل الانغلاق، فلماذا لا نتحول بجهودنا نحو هذا الباب؟.

الإسلامي السني، ثم هو ينقلب هذا الانقلاب الشنيع، وقد يقول القول عن تقليد لغيره، أو قد يبحث هو بنفسه ويصل لمثل هذه المواقف الخطيرة، ولكن حال أصحاب هذه الأقوال من الناحية العلمية حال ضعيفة.

ومن الأمثلة أيضًا ما نراه، أو نقرؤه، أو نسمع عنه من التلبس بحال أهل الكلام في مواقفهم التحريفية لصفات الله تعالى، أو بعض أقوالهم في حقيقة الإيمان والذهاب بعيدًا مع قول أهل الإرجاء، أو الدعوة بأن موقفهم من دعوى تعارض العقل والنقل ـ أحسن المواقف، وأقدرها على حل المشكلات العصرية المشابهة، أو التسامح مع الطرق الصوفية والدعوة للأخذ عن أهلها، وغيرها من بدع أهل الكلام والتصوف، في النظر أو في العمل.

كل هذه الأصول الخطيرة لم تكن ظاهرة في بيئة العلم والدعوة والتدين، وكان حال الناس على قول واحد هو قول أهل السُّنَّة، ولكن في السنوات الأخيرة انقلب الأمر مع مجموعة، فأصبحت لهم مواقع، أو منتديات يبثون فيها وجهتهم الجديدة، فضلًا عن الأشرطة، والدروس، والكتب، والفتاوى السائرة في منهجهم.

ومن الأمثلة أيضًا ما نجده من حدة وقسوة وشدة وغلظة من قبل بعض طلبة العلم على إخوانهم، بحجج كثيرة، مثل اتهامهم للدعاة بالحزبية، أو سلوك مسالك المبتدعة في الدعوة، كأن يتساهلوا في النشيد، والتمثيل الهادف ـ في النشاطات الدعوية،

ثالثًا: من السُّنَّة إلى البدعة

العنوان هنا يشير إلى أقصى طرفي الظاهرة، وهما السُّنَّة من جهة والبدعة من جهة، ولكن البحث يركز بشكل أكبر على المسافة التي بين الطرفين، فقد يكون صاحبها أقرب للسنة وله شبهة بدعة، وقد يكون أقرب للبدعة مع أن له تاريخ أو فضل في السُّنَّة، فأرجو أن يتسع الصدر في هذا المقام، وأن لا يحكم على كل من يتناوله البحث هنا أنه من أهل البدعة، ولكن قد يكون في أمر من أموره متشبهًا بهم ومتلبسًا بلباسهم وسالكًا بعض مسالكهم ـ بعلم، أو بغير علم.

هناك فوضى علمية ناتجة من: كثرة التعلم، وخروج الكتب، وبروز دعاة البدع عبر الوسائل التقنية، ووصولهم لكل أحد، وتمكن الكثير من المعرفة ومن التقنية، ومن ثم سهولة وصوله لما ينتجه مختلف الأطراف.

لا نجهل البدع القديمة وأماكن وجودها ونشاطها، والحديث هنا ليس عنها، فإن في داخلهم تحولات من البدعة للسُّنَّة، وتقلبات من بدعة لأخرى، وإنما الحديث هنا عمن كان غالب حاله على السُّنَّة، أو كان من مستوري الحال، ثم بدا منه أمور تقربه من حال أهل البدع، فقد أصبحنا نسمع، أو نقرأ عن فلان وفلان أنه كان من أهل السُّنَّة، ثم تلبس بأقوال وأفعال هي من أحوال أهل البدع.

أشهر الأمثلة ما نجده من أقوال شنيعة في التكفير لعلماء الشريعة، فضلًا عن عامة المسلمين، وقد كان هذا المكفر محسوبًا في يوم من الأيام على الجهاد الصحيح، والدعوة السلفية، والاتجاه

وهم يحملون مواقف العلماء من المبتدعة على عصرنا، ثم ينزلونها على من عُرف بالخير، ويرون أنهم يقتدون بالسلف، ويعتمدون الأثر، ولكنهم يسكتون عن أخطاء الآخرين، من الخاصة والعامة، سواء كانوا مسؤولين أو غير مسؤولين، ويرون أن هذه الدعوات ودعاتها ربما أخطر على الإسلام من الكفار الصرحاء، هذا ما نقرؤه في منتدياتهم، ونسمعه من أشرطة بعضهم الموجودة على الشبكة، وقد ظهرت هذه الشدة والقسوة والغلظة حتى على بعضهم، فقد وقعت تجاوزات من بعضهم على بعض، وبخاصة في المنتديات المحسوبة على هذا الاتجاه، والناظر من خارجهم إلى خطابهم يعتريه الخوف من هذا الأسلوب غير المعهود في بيئتنا العلمية والدعوية، ويكفي أن تذهب لأحد منتدياتهم، وتجمع ألفاظ التجريح منفصلة عن سياقها، وتضعها في أوراق مستقلة، ستفاجأ بالكم الهائل من ألفاظ الجرح، وهذه غير معروفة عن علمائنا ودعاتنا.

هذا الخطاب أو هذا الأسلوب ليس من معارف أهل السُّنَّة، وقياس عصرنا على موقف علماء السلف من المبتدعة قياس خاطئ، وهذا الأسلوب بما أنه غير معروف عند أهل السُّنَّة ـ فهو معروف عند أهل الأهواء، وليس المقصود الحكم على هذه الطائفة، أو تلك بأنها على بدعة، ولكن أيضًا نحن منهيون عن مشابهة أهل الأهواء.

وبما أن المساحة واسعة فإني أقف مع المواقف الشاذة المبثوثة في منتديات المحسوبين على هذا التوجه، فستجدها بمجموعها تمثل بعدًا عن منهج أهل السُّنَّة، وقربًا من منهج أهل الأهواء، بل يكفوننا هم في الحكم على بعضهم، فتجد كل واحد

منهم يبدع الآخر، ويقول فيه أشنع الأقوال، فلو أخذنا قول كل واحد في الآخر، وهم من نفس التوجه، فماذا تكون النتيجة النهائية!!!

نسأل الله الهداية لما اختُلف فيه من الحق، فمثل هذا الباب يختلط فيه الأمر على أناس صالحين أهل عبادة، أو جهاد، أو علم، أو عمل، أو دعوة وبذل وتضحية، فكل واحد يجتهد في طلب الحق، ويظن أنه عليه، وهو معروف بالصدق، ولكن وقع الخلل في المنهج، والزلات هنا غامضة وخفية ـ تكون تبعًا لذلك خطيرة، وقانا الله شرها، وهدانا الله وجميع المسلمين للحق.

سُئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها بأي شيء كان نبي الله ﷺ يفتتح صلاته إذا قام من الليل قالت رضي الله عنها: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته، فقال: «**اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» [رواه مسلم]، قال النووي في شرحه للحديث: (قوله ﷺ: «**اهدني لما اختلف فيه من الحق**» معناه: ثبتني عليه؛ كقوله تعالى: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦﴾ [الفاتحة: ٦]) [شرح النووي على مسلم، ٦/ ٥٧].

وفي شرح ابن رجب رحمه الله لحديث أبي ذر رضي الله عنه المشهور في الأربعين النووية: (عن أبي ذر رضي الله عنه، عن النبي ﷺ، فيما يروي عن ربه عز وجل أنه قال: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم....**»)، قال رحمه الله: «وأما سؤال المؤمن من الله

الهداية، فإن الهداية نوعان: هداية مجملة: وهي الهداية للإسلام والإيمان وهي حاصلة للمؤمن، وهداية مفصلة: وهي هدايته إلى معرفة تفاصيل أجزاء الإيمان والإسلام، وإعانته على فعل ذلك، وهذا يحتاج إليه كل مؤمن ليلًا ونهارًا، ولهذا أمر الله عباده أن يقرؤوا في كل ركعة من صلاتهم قوله: ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝٦﴾، كان النبي ﷺ يقول في دعائه بالليل: «**اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» [جامع العلوم والحكم، ص٢٢٥].

وقد وجدت موقفًا يتكرر لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فهو عند ذكره لمسائل شائكة ووقع فيها الاشتباه والاختلاف، يختم بذكر هذا الحديث، ومن ذلك قوله بعد نقاشه لمسألة من هذا النوع: «فمن تبين له الحق في شيء من ذلك اتبعه، ومن خفي عليه توقف حتى يبينه الله له، وينبغي له أن يستعين على ذلك بدعاء الله، ومن أحسن ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها: «**أن النبي ﷺ كان إذا قام من الليل يصلي يقول: اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» [مجموع الفتاوى، ١٢/ ١٠٣].

رابعًا: من النشاط إلى الفتور

قد لا يقع الاختلاف في وجود هذا الانقلاب، وهو الفتور، وله حالان مشهورتان: الانقلاب من النشاط العلمي والدعوي - إلى

الاكتفاء بالذات، والانعزال عن المجتمع مع بقائه في جملة الصالحين، أو الانقلاب من الصلاح، والعبادة، والاستقامة ـ إلى الفتور، والكسل، والضعف.

ولكن قد يأتي تساؤل: ما علاقة هذا بالتقلبات الفكرية؟ فهذا الفتور معروف في تاريخ الدعوات، ومعروف في أحوال الناس، والخوف كل الخوف أن يتسبب هذا الفتور في ترك واجب أو الوقوع في محذور، وأما من فتر وبقي محافظًا على الواجبات مبتعدًا عن المحرمات ـ فقد حرم نفسه من أجور العبادة غير المفروضة فرض عين عليه، وما أكثر خسارته عندما تقف أجور كان يكسبها في دعوته، وتعليمه الناس، وفي إقامته السنن والنوافل، ومسابقته في الخيرات.

إذا كان الفتور معروفًا ويرتبط بجوانب الأحوال ـ فلماذا وضع في التقلبات الفكرية؟

هنا تظهر مشكلة البيئة المعقدة، فالبيئة البسيطة قد يكون السبب أحاديًّا، مثل الافتتان بالدنيا والركون إليها، أو الوقوع فريسة شهوة من الشهوات الكثيرة، فيضعف، أو تشق عليه تكاليف العبودية، ولم يصبر على صعوبات البداية حتى تصبح عنده من ملاذّ الأعمال، فيفتر، ومن منا لا يخاف على نفسه من هذه الحال، نسأل الله الثبات، ولكن قد يختلف الأمر في البيئة المعقدة، فقد يكون الأثر مبدؤه فكريًّا ومن الشبهات، ثم تعمق مع الوقت، وساندته الشهوات فضعف المرء أمامها، فوقع له أول خطوة من خطوات الخطر وهي الفتور.

لسنا نتكلم هنا مع من رتعوا في الكبائر ونريد إخراجهم منها بالتدرج، ولكن الحديث هنا مع من أنعم الله عليه بالهداية وسلوك طريق الاستقامة، ثم تجده يتفلت ـ بسبب هذه الشبهات ـ من العزائم والمسابقة في الخيرات ـ إلى الفتور ومخالطة كثير من المشتبهات، والحلال بيّن والحرام بيّن، وبينهما كثير من المشتبهات، فمن وقع فيها وقع في الحرام ـ كما أخبر بذلك الصادق المصدوق ﷺ.

وثاني هذه الأحوال ما جاء من جراء أحداث معينة في عصرنا، مثل ما وقع من تقلبات عند بعض الناس من طريق حسنة إلى أخرى غير حسنة، وما وقع من نقاشات مطولة قائمة في ظل الحملة على الإرهاب، فطالت أصولًا عقدية وعملية، وقيل فيها أقوال، وظهرت فيها اجتهادات مخالفة لما كان الأمر مستقرًّا عليه، وليس الأمر هنا متعلقًا بنقاش صحة هذه النقاشات وما صدر عنها من اجتهادات، ولكن اللافت للنظر أن طائفة من الفاترين وجدوا في هذه الاختلافات مسوغًا لفتورهم، وترك الأقوال التي لا تناسب فتورهم، والتحول لأقوال تبرر فتورهم، فأصبح هناك جمهور غفير، وسّعته وكثّرته طبيعة البيئة المعقدة التي لا تسمح لك بالفتور، دون أن تقدم تبريرًا لفتورك.

وثالث هذه الأحوال ذات البعد الفكري ـ ما ظهر مع ثورة البث الفضائي والاتصالي، وما تبعه من قنوات فضائية، ومواقع، ومنتديات حاسوبية، ومن ساعات بث كبيرة تنتظر المتفرجين لها، وقد بُثّ في المشهور منها ما يشوه الدعوة الإسلامية، وما يعمق أصول التميع والتفلت، وقد كان من مشاهير جمهورها هؤلاء الفاترين، كيف؟

بعد انقطاعهم عن العلم والدعوة ـ ظهرت ساعات فراغ كبيرة في حياتهم، وقد تعود على النشاط، فكان البديل هو التفرغ للشاشة لمتابعة ما تبثه، وبما أنه في مرحلة استرخاء، فقد تكثفت عليه الشبهات، وربما طالع الكثير من النقد المنصب على العلم والدعوة والأصول الدينية، أو طالع الرؤى الجديدة التي تطرح التفلت بأسلوب فكري ودعوي نشيط، فيكون أثرها عليه كبيرًا، بخلاف من فتر في البيئة البسيطة، فإنه لا يجد ما يؤثر عليه، ويؤصل فتوره.

ويبقى من غير المناسب وضع هؤلاء في موضع الانقلابات الكبرى، فهم أهل خير وصلاح، ويحتاجون جهدًا مميزًا يذكّرهم بعظم المسؤولية، وأهمية أخذ الدين بقوة وجد، وإشراكهم في أمور الخير التي لا ينفرون منها ولا يستثقلونها، حتى يكونوا قريبين من أهل الخير.

الخامس: من المروءة إلى الإمعية

الإمعية حالة من يفقد القدرة على اتخاذ القرار المناسب، فهو فاقد للرأي، أو فاقد للعزيمة، فأي تيار فكري جذاب وقوي وناجح وله دعاية قوية تجد الإمعي ينقاد له ويسير في ركابه، وأي ظواهر سلوكية سائدة ومشهورة وتظهر بدعاية صارخة، أو يكثر من الناس فعلها، تجده معهم، سيكون مستلبًا ممن حوله، أو يعيش حالة اغتراب، والمُستلب هو الشخص الضعيف الذي يسيطر عليه شخص قوي فيوجهه أينما كان، والاغتراب هو أن يظن الشخص أنه قوي، ولكن يجد واقعًا مناسبًا له فيدفن نفسه فيه هروبًا من تحمل القرارات الصعبة في الحياة.

إذًا فالمسألة ذات بعد أعمق من الشهوات ويرجع للشبهات، وبخاصة أن شهوات البيئة المعقدة لم تعد شهوات مستقلة بذاتها، بل أصبحت شهوات مزروعة في شبهات.

ومن الأحوال البارزة هنا، هذه الأحوال:

أول هذه الأحوال وربما هو أخطرها ما ظهر من جراء فتنة العصرانية الغالية التي فتحت الباب أمام كثير من الشبهات، ووزعت عبر نشاطها الإعلامي كثيرًا من المسكنات أو المخدرات ـ التي توهّم صاحبها أنه على خير عظيم مهما وقع منه، وهذا عندما نذهب لأقصى يسارها، فهي متحمسة لمفهوم الإرجاء الذي يعفي صاحبه من كثير من الواجبات، ويهون عنده المسؤولية، كما أن إعلاء فقه الخلاف بمنهجية أهل الأهواء ـ يفتح الباب للتفلت من كثير من الواجبات والوقوع في محرمات بحجة وجود قول من أقوال أهل العلم في هذه المسألة أو تلك.

كثير من الناس يريد أجرًا كبيرًا بعمل قليل، ومع أنه غير مقبول في الدنيا، بل تجد منهم الشقاء والعناء والتعب في دنياهم؛ لأنهم يعلمون أن الأجر يزداد بالعمل والقيام بالواجب، لكن إذا جاء الأمر متعلقًا بأبواب الدين ـ وجدت من تلميع الإرجاء، ونشر الأقوال الشاذة، أو المرجوحة ـ ما يفتح الباب للتكاسل في تحمل الأمانة، والقيام بالواجب، والجدية، وأخذ الدين بقوة وهمة وعزيمة ومسؤولية. بل قد نجد من تأخذ العناية بجسده مبلغًا عظيمًا، ولو تعب في ممارسة أنواع من الرياضة، أو حرم نفسه من بعض الملاذّ خوفًا على صحته، فإذا جاءت أبواب الدين وجدته مترهلًا فيها، ويجد لنفسه مخارج كثيرة.

والحديث هنا عن الإمعية المذمومة، وليس عن التكيف المناسب مع مستجدات الحياة والتغيرات الاجتماعية، وإنما عن فقد الشخص للرأي الصحيح والإرادة، أو العزيمة الصلبة القوية(١).

---

(١) يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ في مفتاح دار السعادة: «والكمال كله إلى العلم والعزيمة، والناس في هذا على أربعة أضرب، **الضرب الأول**: من رزق علماً وأعين على ذلك بقوة العزيمة على العمل، وهذا الضرب خلاصة الخلق، وهم الموصوفون في القرآن بقوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥]، وقوله: ﴿أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، وبقوله: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَـٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَـٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، فبالحياة تنال العزيمة، وبالنور ينال العلم، وأئمة هذا الضرب هم أولو العزم من الرسل، **الضرب الثاني** من حرم هذا وهذا، وهم الموصوفون بقوله: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢]، وبقوله: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَـٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤]، وبقوله: ﴿إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ﴾ [النمل: ٨٠]، وقوله: ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى ٱلْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، وهذا الصنف شر البرية يضيّقون الديار، ويُغلون الأسعار، وعند أنفسهم أنهم يعلمون؛ ولكن ﴿ظَـٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ [الروم: ٧]؛ ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَـٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧]، ويعلمون؛ ولكن ﴿مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ﴾ [البقرة: ١٠٢]، وينطقون؛ ولكن عن الهوى ينطقون، ويتكلمون؛ ولكن بالجهل يتكلمون، ويؤمنون؛ ولكن ﴿بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّـٰغُوتِ﴾ [النساء: ٥١]، ويعبدون؛ ولكن ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ﴾ [يونس: ١٨] ويجادلون؛ ولكن ﴿بِٱلْبَـٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ﴾ [الكهف: ٥٦]، ويتفكرون ويبيتون؛ ولكن ﴿مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ﴾ [النساء: ١٠٨] يبيتون، ويدعون؛ ولكن ﴿مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ ۖ﴾ [الحجر: ٩٦] يدعون ويذكرون؛ ولكن ﴿وَإِذَا ذُكِّرُوا۟ لَا يَذْكُرُونَ﴾ [الصافات: ١٣] ويصلون؛ ولكنهم من ﴿لِّلْمُصَلِّينَ ۝٤ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾ [الماعون: ٤ ـ ٧] ويحكمون؛ ولكن حكم =

....

....

= ﴿ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] ويكتبون؛ ولكن ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ﴾ [البقرة: ٧٩]، ثم يقولون: هذا من عند الله ﴿لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩] ﴿فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩] ويقولون: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١١، ١٢] فهذا الضرب ناس بالصورة، وشياطين بالحقيقة، وجلّهم إذا فكرت فهم: حمير، أو كلاب، أو ذئاب، وصدق البحتري في قوله:

لم يبق من جل هذا الناس باقية ... ينالها الوهم إلا هذه الصور

وقال الآخر:

لا تخدعنك اللحاء والصور ... تسعة أعشار من ترى بقر

في شجر السدر منهم مثل ... لها رواء وما لها ثمر

وأحسن من هذا كله قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا۟ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤].

عالمهم كما قيل فيه:

زوامل للأسفار لا علم عندهم ... يجيدها إلا كعلم الأباعر

لعمرك ما يدري البعير إذا غدا ... بأوساقه أو راح ما في الغرائر

وأحسن من هذا وأبلغ وأوجز وأفصح قوله تعالى: ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا ۚ بِئْسَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥].

الضرب الثالث من فتح له باب العلم وأغلق عنه باب العزم والعمل، فهذا في رتبة الجاهل أو شر منه، وفي الحديث المرفوع: «**أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه**». ثبته أبو نعيم وغيره، فهذا جهله كان خيراً له وأخف لعذابه من علمه فما زاده العلم إلا وبالاً وعذاباً، وهذا لا مطمع في صلاحه، فإن التائه عن الطريق يرجى له العود إليها إذا أبصرها، فإذا عرفها وحاد عنها عمداً، فمتى ترجى هدايته، قال تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِى ٱللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا۟ بَعْدَ إِيمَٰنِهِمْ وَشَهِدُوٓا۟ أَنَّ ٱلرَّسُولَ حَقٌّ وَجَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٨٦﴾ [آل عمران: ٨٦].

الضرب الرابع من رزق حظاً من العزيمة والإرادة ولكن قلّ نصيبه من =

بين العلم والعمل، وقد حذرنا الله من طريق أهل النظر الذين فصلوه عن العمل، وهم المغضوب عليهم، ومن طريق أهل العمل الذين فصلوه عن النظر، وهم الضالون، وطريق أهل الاستقامة هو الطريق الوسط.

فما المقصود بهذا الانقلاب؟ وما بعده الفكري؟

الحديث هنا عن صورة أوسع يدخل ضمنها كثير من الطيبين، فقد كانت البيئة السابقة البسيطة تسودها المروءات، وإن وجد ما يخالفها فهو الشاذ، ولو أخذنا أي باب من أبواب الحياة ستجد العجب من المروءات فيه، وخذ مثلًا إكرام الضيف، أو تعامل الرجل مع موليته، أو تعامل الجار مع جاره، ستجد أمثلة رائعة لا تخطئها العين.

ثم اقلب بصرك إلى البيئة الجديدة ستجد خللًا واضحًا قد أصابها، ويمكن أن يكون مفتاح الروح الجديدة هو الإمعية، وهذا الانقلاب كنت قد كتبته من خلال تأملي في البيئة، لكني اكتشفت أنني قد قرأته لمفكر مشهور (طه عبد الرحمٰن)، ونسيت ذلك الأمر، وبعد كتابتي هذا الانقلاب ـ اطَّلعت صدفة على كتاب ذاك المفكر، فتذكرت أنني قد قرأته قبل كتابة البحث، فيكون مما نسيت مصدره.

ويبقىٰ السؤال: إذا كان التحول من «المروءات» إلى «الإمعيات» يعدّ أمرًا ملحوظًا بين البيئة القديمة والبيئة المعولمة، فما علاقة ذلك بالتقلبات الفكرية وتحولاتها؟

وجوابه يكون بالنظر في المحيط الأوسع للأسباب، وبخاصة السببين: الثالث والرابع، الإعلام والعولمة بوجهها القبيح.

وذلك أن هذا التحول المزعج ليس في أفراد ضعفاء، وأصحاب نفسيات لينة، وشخصيات بسيطة، وليس الأمر محصورًا في الشباب المراهق، ولا في عوام الناس: رجالًا ونساءً، بل قد تجد ذلك من طبقات متعلمة، حصلوا على تعليم جامعي، وعندهم تخصصات رائعة، يمارسون من خلالها وظائفهم وأعمالهم اليومية.

ثم تجدهم لا يختلفون عن غيرهم، وأصابهم ما أصاب غيرهم من تحولات، والبحث عن جانبه الفكري هنا بارز في هذه الآلة الإعلامية وأدوات العولمة العملاقة في إعادة تشكيل هويات البشر وأذواقهم وتصوراتهم.

ولو توقفنا مع أي منتج يظهر للناظر بعده عن الجوانب الفكرية، ثم تتأمل فيه، وتحلله، وتدرسه بعمق، تجد خلفه أبعادًا فكرية واضحة.

شركة - لها جوانب في الأزياء والجمال والكماليات والتقنية وأدوات المنزل والزينة، ثم تجدها تملك مؤسسات علمية وجامعات ودور نشر ومراكز إنتاج ثقافية وفنية، ومؤسسات إعلامية، وحتىٰ توجد الشخص اللين المطيع المبادر في الاستهلال، فلا بد من تحطيم عناصر الممانعة، ومنها جانب المروءات، وتحويله إلى إمعية، يكفي أن يلبس مشهورٌ هذا اللباس أو يمتلك تلك التقنية حتىٰ يبادر هذا الإمعي في شراءها.

وتكوين هذه الشخصية تتم بالذراع الثاني لتلك الشركة، وهو الذراع الناعم عبر المؤسسات الأكاديمية، والباحثين، والخبراء، والمتخصصين، والفنون، لصياغة هوية جديدة.

وأجد أن هذا الأمر مدروس بكثافة في الثقافة الغربية، وهناك مدارس تخرج جهودًا نقدية، وتكشف كيف تتحرك أذرعة العولمة الثقافية، والفنية، والوجدانية لتخدم شركاتها الإنتاجية ذات المنتجات الاستهلاكية، وأن ذلك يتم بتكوين ذوات إمعية عبر تحطيم تصوراتها وقيمها الحامية لها.

هنا مقولة تجدها كثيرًا في كتب التراث الإسلامي، أنقلها بنصها دون تعليق، ثم أدخل موضوعي: يقول السلمي: «سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله يقول: سمعت الجريرى يقول: تعامل القرن الأول فيما بينهم بالدين زمانًا طويلًا حتى رق الدين، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم صار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة». [أنظرها في «آداب الصحبة» لأبي عبد الرحمٰن السلمي].

تُذكر المروءة في كتب أغلب الفقهاء في شروط الشهادة، ومن هذه الشروط: (العدالة) التي تقوم بأمرين: الصلاح في الدين، والمروءة. فمن سقطت مروءته سقطت شهادته، ونحن - وإن كنا مع هذا المعنى إلا أننا نستخدمه هنا في تحليل اجتماعي أوسع، يجمع بين معناها عند الفقهاء ومعناها عند أهل الأدب والأخلاق والسلوك والرقاق، مع تنزيلها في ميدان الفكر الإسلامي.

ملخص مهم من كتاب الماوردي حول المروءة:

أبدأ بتلخيص أجمل ما وجدته في الباب، وهو من كتاب «أدب الدنيا والدين» للماوردي: «المروءة» مراعاة النفس على أفضل

أحوالها، حتى لا يظهر منها قبيح عن قصد، ولا يتوجه إليها ذم باستحقاق(١).

وسئل بعض الحكماء عن الفرق بين العقل والمروءة فقال: العقل يأمرك بالأنفع، والمروءة تأمرك بالأجمل.

ثم قال: «وإذا كانت كذلك، فليس ينقاد لها ـ مع ثقل كلفها ـ، إلا من تسهلت عليه المشاق رغبة في الحمد، وهانت عليه الملاذّ حذرًا من الذم». ونقل عن المتنبي:

وإذا كانت النفوس كبارًا   تعبت في مرادها الأجسام

والداعي إلى استسهال ذلك شيئان:

أحدهما: علو الهمة، **والثاني**: شرف النفس.

أما علو الهمة: فلأنه باعث على التقدم، ويأنف صاحبها من خمول الضعة، ومهانة النقص.

وأما شرف النفس: فإن به يكون قبول التأديب، واستقرار التقويم والتهذيب؛ لأن النفس ربما جمحت عن الأفضل وهي به عارفة، ونفرت عن التأديب، وهي له مستحسنة.

فصاحب النفس الشريفة يقبل التأديب والتقويم والتهذيب مع نفور النفوس من ذلك، وقد قيل: ما أكثر من يعرف الحق ولا

(١) بتصرف من أدب الدنيا والدين، ومن المراجع التي قرأتها بتأمل قبل كتابة هذا الملخص: المغني لابن قدامة، والشرح الممتع لابن عثيمين، والموسوعة الفقهية الكويتية، مادة مروءة، ويمكن التأمل في أحوال الناس مع هذه المفاهيم في البيئتين، والتأمل في حجم التغير الذي وقع لهم.

وفي «النهاية في غريب الأثر» في مادة (إمّع) يقول: «اغْدُ عَالمًا أو مُتَعلِّمًا ولا تكن إِمَّعَة» الإِمَّعة بكسر الهمزة وتشديد الميم: الذي لا رَأي له، فهو يُتابع كل أحد على رَأيه، والهاء فيه للمبالغة. ويقال فيه إمّع أيضًا. وقيل: هو الذي يقول لكل أحد أنا معك، ومنه حديث ابن مسعود رضي الله عنه: «**لا يكوننّ أحد إمّعة قيل: وما الإمّعة؟ قال: الذي يقول أنا مع الناس**».

تبرير هذا الانقلاب من الناحية الفكرية أصعب من سابقه عند كثير من الناس، فقد تعوّد كثيرون على فصل السلوك والقيم والعمل عن النظر والاعتقاد، وأجد أن هذا من الغلط الذي وقع فيه هؤلاء، فعمليات الفصل بين النظر والعمل، أو بين العقيدة والشريعة، أو بين العبادات والمعاملات، ليس المقصود منها التقليل من شأن واحدة على حساب الأخرى، ولكنها تأتي في الغالب من باب التيسير في معرفة الأمور، أو من باب الأولويات ـ وإن كانت كلها ذات أهمية.

ومن ذلك الحديث عن السلوك الاجتماعي العام عند الناس، فبعضهم يريد إبعاد هذه السلوكيات عن الجوانب الفكرية والنظرية، ويظن أنها فقط تخضع للعادة، وتتأثر بالتربية، وليس لها علاقة بالفكر، وهذا مفهوم غير صحيح، فمن خصائص الإسلام التوازن

= العلم والمعرفة، فهذا إذا وفق له الاقتداء بداع من دعاة الله ورسوله كان من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [النساء: ٦٩، ٧٠] رزقنا الله من فضله ولا حرمنا بسوء أعمالنا إنه غفور رحيم.

يطيعه. وإذا شرفت النفس كانت للآداب طالبة، وفي الفضائل راغبة.

أما الشروط فجعلها في قسمين:

أحدهما: شروط المروءة في نفسه وهي: (العفة، والنزاهة، والصيانة).

والثاني: شروطها في غيره وهي: (المؤازرة، والمياسرة، والإفضال).

فأما شروطها في نفسه ـ فبعد التزام ما أوجبه الشرع من أحكامه ـ فيكون بثلاثة أمور، وهي: العفة، والنزاهة، والصيانة.

فأما **العفة** فنوعان: العفة عن المحارم، والعفة عن المآثم.

والتي عن المحارم نوعان: أحدهما ضبط الفرج عن الحرام، والثاني كف اللسان عن الأعراض. وما يقدح في الأعراض: الكذب، وفحش القول، والغيبة، والنميمة، والسعاية، والسب بقذف، أو شتم. وربما كان السبُّ أنكاها للقلوب، وأبلغها أثرًا في النفوس. ولذلك زجر الله عنه بالحد تغليظًا، وبالتفسيق تشديدًا وتصعيبًا.

والتي عن المآثم نوعان: الكف عن المجاهرة بالظلم، وزجر النفس عن الإسرار بخيانة.

وأما **النزاهة** فنوعان: النزاهة عن المطامع الدنية، والنزاهة عن مواقف الريبة.

فأما المطامع الدنية؛ فلأن الطمع ذل، والدناءة لؤم، وهما أدفع شيء للمروءة.

وأما مواقف الريبة فهي التردد بين منزلتي حمد وذم، فتتوجه إليه لائمة المتوهمين، ويناله ذلة المريبين، وكفى بصاحبها موقفًا إن صح افتضح، وإن لم يصح امتهن، وقد قال النبي ﷺ: «**دع ما يريبك إلى ما لا يريبك**».

وأما **الصيانة** فنوعان: صيانة النفس بالتماس كفايتها، وصيانتها عن تحمل المنن من الناس، والاسترسال في الاستعانة.

وأما التماس الكفاية وتقدير المادة؛ فلأن المحتاج إلى الناس، كَلٌّ مهتضم، وذليل مستثقل.

وما يستمده نوعان: لازم وندب. فأما اللازم فما أقام بالكفاية وأفضى إلى سد الخلة.

وعليه في طلبه **ثلاثة شروط**:

واحدها: استطابته من الوجوه المباحة، وتوقي المحظورة؛ فإن المواد المحرمة مستخبثة الأصول، ممحوقة المحصول.

والثاني: طلبه من أحسن جهاته التي لا يلحقه فيها غض، ولا يتدنس له بها عرض، فإن المال يراد لصيانة الأعراض لا لابتذالها، ولعز النفوس لا لإذلالها. وقال عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه: يا حبذا المال أصون به عرضي، وأرضي به ربي.

والثالث: أن يتأنى في تقدير مادته، وتدبير كفايته ـ بما لا يلحقه خلل، ولا يناله زلل، فإن يسير المال **مع حسن التقدير، وإصابة التدبير**، أجدى نفعًا وأحسن موقعًا من كثيره مع سوء التدبير، وفساد التقدير، كالبذر في الأرض إذا روعي يسيره زكا،

وإن أهمل كثيره اضمحل[١].

وقد قيل لبعض الحكماء: فلان غني، فقال: لا أعرف ذلك ما لم أعرف تدبيره في ماله.

فإذا استكمل هذه الشروط فيما يستمده من قدر الكفاية فقد أدى حق المروءة في نفسه. وأما الندب فهو ما فضل عن الكفاية، وزاد على قدر الحاجة، فإن الأمر فيه معتبر بحال طالبه.

وأما صيانتها عن تحمل المنن والاسترسال في الاستعانة؛ فلأن المنة استرقاق الأحرار، تحدث ذلة في الممنون عليه، وسطوة في المعان به. والاسترسال في الاستعانة تثقيل، ومن ثقل على الناس هان، ولا قدر عندهم لمهان.

وقال علي بن أبي طالب رضي الله عنه لابنه الحسن في وصيته له: يا بني إن استطعت أن لا يكون بينك وبين الله ذو نعمة فافعل، ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حُرًّا.

ومن أقدم من غير اضطرار على الاستعانة بجاه أو بمال فقد أوهى مروءته، واستبذل صيانته، ومن دعاه الاضطرار لنائب ألمّ، أو

(١) وقد أطلت نقل هذا الباب لأهميته، فمعلوم انفتاح الدنيا على الناس من جهة، ووفرة المال عند بعض الناس، وكذا انتشار الطابع الاستهلاكي، والبحث عن المال، عند آخرين، ويحضرني هنا ما يقع من أناس أكثروا الاستلاف، وأنفقوا ودخلوا في ديون حتى رقت مروءتهم، وكذا من مشكلات المال ما وقع من قوم في استسهال أخذ أموال الناس من أجل المحافظ الاستثمارية، ولا شك أن التجارة أمر محمود، ولكن في أمر غير مشكوك: طريقه، ومدخله، ومخرجه....

حادث هجم إلى الاستعانة بمن يتنفس به من خناق كربه، ويتخلص به من وثاق نوائبه، فلا لوم على مضطر. فإن أغنته الاستعانة بالجاه عن الاستعانة بالمال، فلا عذر له في التعرض للمال. فإن تعذر عليه صلاح حاله إلا بمال يستعين به على نوائبه كان له مع الضرورة فسحة. لكن إن وجده قرضًا مردودًا ـ لم يأخذه صلة وجودًا، فإن القرض مستسمح به في المروآت. وهذا رسول الله ﷺ مع ما أعلى الله من قدره وفضله على خلقه، قد اقترض ثم قضى فأحسن.

وأما شروط المروءة في غيره فثلاثة: **المؤازرة، والمياسرة، والإفضال**.

أما **المؤازرة** فنوعان: الإسعاف بالجاه، والإسعاف في النوائب.

فأما الإسعاف بالجاه فقد يكون من الأعلى قدرًا، والأنفذ أمرًا، وهو أرخص المكارم ثمنًا، وألطف الصنائع موقعًا، وربما كان أعظم من المال نفعًا.

وبذل الجاه قد يكون من كرم النفس وشكر النعمة، وضده من ضده، وليس بذل الجاه لالتماس الجزاء بذلًا مشكورًا، وإنما هو بائع جاهه ومعاوض على نعم الله تعالى وآلائه فكان بالذم أحق.

وعلى من أسعد بجاهه **ثلاثة حقوق**:

أحدها: أن يستسهل المعونة مسرورًا، ولا يستثقلها كارهًا.

والثاني: مجانبة الاستطالة، وترك الامتنان، فإنهما من لؤم الطبع وضيق الصدر، وفيهما هدم الصنيع، وإحباط الشكر.

والثالث: أن لا يقرن بمشكور سعيه، تقريعًا بذنب، ولا توبيخًا على هفوة[١].

والإسعاف في النوائب نوعان: واجب وتبرع.

فأما الواجب فما اختص بثلاثة أصناف وهم: الأهل، والإخوان، والجيران.

أما الأهل فلمماسة الرحم وتعاطف النسب، وقد قيل: لم يسد من احتاج أهله إلى غيره. وأما الإخوان فلمستحكم الود ومتأكد العهد. وأما الجار فلدنو داره واتصال مزاره.

فيجب في حقوق المروءة وشروط الكرم في هؤلاء الثلاثة تحمل أثقالهم، وإسعافهم في نوائبهم، ولا فسحة لذي مروءة مع ظهور المكنة أن يكلهم إلى غيره، أو يلجئهم إلى سؤاله، وليكن سائل كرم نفسه عنهم، فإنهم عيال كرمه، وأضياف مروءته، فكما أنه لا يحسن أن يلجئ عياله وأضيافه إلى الطلب والرغبة، فهكذا من عاله، كرمه وأضافته مروءته. وأما التبرع فيمن عدا هؤلاء الثلاثة من البعداء.

وأما **المياسرة** فنوعان: العفو عن الهفوات، والمسامحة في الحقوق.

فأما العفو عن الهفوات: فلأنه لا مبرأ من سهو وزلل، ولا سليم من نقص أو خلل. وقد قالت الحكماء: لا صديق لمن أراد صديقًا لا عيب فيه.

وأما المسامحة في الحقوق: فلأن الاستيفاء موحش،

---

(١) وهنا يظهر في بيئات قد أنعم الله على أصحابها بجاه، بسبب التعليم، أو التجارة، ثم تجده بخيلاً بجاهه متكبراً على غيره...

استدفاع أهل البذاء، صار عرضه هدفًا للمثالب، وحاله عرضة للنوائب، وإذا استكفى السفيه واستدفع البذيء - صان عرضه، وحمى نعمته.

وقفة مع تقسيم الفقهاء مخلات المروءة لقسمين: قسم في الأفعال، وقسم في الصناعات الدنيئة

يضع الفقهاء مخلات المروءة في قسمين، قسم في الأفعال، وآخر في الصناعات الدنيئة.

وهنا وقفة مع الصناعات الدنيئة لأهميتها، فكل عمل الأصل فيه أنه شريف ما لم يكن محرمًا أو مكروهًا، ولكن كانت الأعمال الدنيئة مخلة بالمروءة؛ لأن فيها دليل على ضعف همّة صاحبها - بخلاف المضطر - وإلا لما رضي بهذا الوضع، ولكن هناك أمر يدعو للدهشة هذه الأيام: فقد كان الجيل الماضي حريصًا على البحث عن عمل، ولا يمانع من العمل في أي شيء شريف، حتى وإن كان الأجر زهيدًا، فتسمع منهم الحكايات عن بداية حياتهم، عندما هجروا قراهم نحو المدن بحثًا عن عمل، ويستذكرون تلك المعاناة بكل سعادة، ويندر أن تجد فيهم من كان عالة على أهله أو غيرهم، وواصلو في البحث عن الرزق، وسلكوا دروب العمل الشريف الذي يرفع عنهم الحاجة.

فإذا نظرت اليوم إلى طائفة من الناس، وهي أوضح في الشباب، تجد ذلك الوضع المختلف، فلا يبحث عن عمل ويريد فقط أن يحصل على عمل مريح دون أن يقدم له أسبابه، والأسوأ من ذلك أنك تجد طائفة منهم يترفعون عن أعمال شريفة بحجة أنها لا تليق بهم، وكأن بقاءهم عالة على آبائهم المتقاعدين من كبار

السن، أو أخواتهم الموظفات أو حتى الزوجات، هو اللائق بهم، فكيف وقع هذا التحول المشين؟!

بل وتجد مشكلات كثيرة معروفة في أقسام الشُّرط وعند القضاء، من شباب يقومون بأعمال تجاوزت الإخلال بالمروءة إلى الأعمال المحرمة، مثل: العمل في تهريب المحرمات، أو سرقة أشياء الناس من أجل الحصول على مال، واستسهال السرقة من الأسواق، أو السيارات المغفول عنها، أو حتى خطف أشياء النساء من أيديهن وهن في طريق أو مكان عام، ثم لو طلب من أحدهم العمل في أمر شريف لعدّ ذلك من مخلات المروءة.

قد تكون هناك أسباب كثيرة لمثل هذا الانقلاب، وقد لا يكون الشباب هم وحدهم المسؤولون عن هذا الانحراف، وقد تكون المشكلة أعمق مما نذكره هنا، وهذا أمر وارد، ولكن الحديث هنا عن صور من هذا الانقلاب الاجتماعي فقط ـ من عالم المروءات إلى عالم الإمعيات في باب السعي للرزق، والبحث عن أبعاد فكرية خلفه.

وبما أن الوضع الحالي وضع معقد ومتشابك، فيمكن أن نرى أثر بعض الأسباب في هذه الظاهرة، كما نرى أثر هذه الظاهرة في غيرها من الظواهر، ويمكن التركيز هنا على حجم **المتعة** التي يعلن عنها الإعلام، وتظهر في الفنون التي تعبر إلينا من خلاله، فهي لم تكن موجودة في مرحلة سابقة، وهي الآن حاضرة بقوة وهذه المتعة ذات أبعاد فكرية، ترجع إلى الفكر الرأسمالي الاستغلالي، الذي يعزز مفاهيم ليبرالية تخدمه في أغرافية وبخاصة جانب الحرية والفردية ويتم إخراجهما لكل شخص بما يناسبه.

جدول يبسط موضوعات المروءة

في نفسه: العفة والنزاهة والصيانة		
العفة نوعان: - العفة عن المحارم - العفة عن المآثم	عن المحارم نوعان: أحدهما ضبط الفرج عن الحرام (أمثلة): الثاني كف اللسان عن الأعراض (أمثلة):	عن المآثم نوعان: الكف عن المجاهرة بالظلم (أمثلة): زجر النفس عن الإسرار بخيانة (أمثلة):
النزاهة نوعان: - النزاهة عن المطامع الدنية - النزاهة عن مواقف الريبة		
الصيانة نوعان: - صيانة النفس بالتماس كفايتها - صيانتها عن تحمل المنن من الناس والاسترسال في الاستعانة		
في غيره: المؤازرة والمياسرة والإفضال		
المؤازرة نوعان: - الإسعاف بالجاه - الإسعاف في النوائب		
المياسرة نوعان: - العفو عن الهفوات - المسامحة في الحقوق		
الإفضال نوعان: - إفضال اصطناع - إفضال استكفاف ودفاع		

الخاتمة

بعد هذا الاستعراض نصل للختام، ومن أهم ما يذكّر به هنا: أن الوضع الحالي وضع معقد، ويحتاج لجهود علمية وبحثية كثيرة حتى نفهم واقعنا، ونستطيع العيش فيه باطمئنان يَسلَم لنا فيه ديننا الذي هو عاقبة أمرنا، ودنيانا التي فيها معاشنا.

- وقد يقال أين العلاج؟

والجواب: هناك من يضع العلاج في قسم مستقل، يُختم به، وهناك من يجعل الحلول ضمن العرض، حيث تكون مشتبكة بالأسباب والمظاهر، وهذه الطريقة هي المسلوكة في هذه الورقة، ويبقىٰ الأهم في نظري هو الوعي بالظاهرة ومعرفتها معرفة علمية قدر المستطاع، وهذه المعرفة تقود صاحبها إلى اتخاذ المواقف المناسبة.

والاستقصاء منفر، ومن أراد كل حقه من النفوس المستصعبة بشح، أو طمع ـ لم يصل إليه إلا بالمنافرة والمشاقة، ولم يقدر عليه إلا بالمخاشنة والمشاحة؛ لما استقر في الطباع من مقت من شاقها ونافرها، وبغض من شاحها ونازعها، كما استقر حب من ياسرها وسامحها، فكان أليق لأمور المروءة استلطاف النفوس بالمياسرة والمسامحة، وتألفها بالمقاربة والمساهلة.

والمسامحة نوعان في عقود وحقوق.

فأما العقود فهو أن يكون فيها سهل المناجزة، قليل المحاجزة، مأمون الغيبة، بعيدًا من المكر والخديعة. وأما الحقوق فتتنوع المسامحة فيها نوعين: أحدهما في الأحوال، والثاني في الأموال.

فأما المسامحة في الأحوال فهو اطّراح المنازعة في الرتب، وترك المنافسة في التقدم.

وأما المسامحة في الأموال فتتنوع ثلاثة أنواع: مسامحة إسقاط لعدم، ومسامحة تخفيف لعجز، ومسامحة إنكار لعسرة.

وأما **الإفضال** فنوعان: إفضال اصطناع، وإفضال استكفاف ودفاع.

فأما إفضال الاصطناع فنوعان: ما أسداه جودًا في شكور، والثاني: ما تألف به نبوة نفور.

وأما إفضال الاستكفاف؛ فلأن ذا الفضل لا يعدم حاسد نعمة، ومعاند فضيلة، يعتريه الجهل بإظهار عناده، ويبعثه اللؤم على البذاء بسفهه، فإن غفل عن استكفاف السفهاء، وأعرض عن

أسأل الله الثبات على الحق حتى ألقاه، اللهم ثبتنا على دينك، واجعل خير أيامنا يوم نلقاك.

المحتويات